منطق التسلح ومعضلة التنمية من خلال النظرية الواقعيّة: حالة المغرب الكبير

الحبيب استاتي زين الدين*

ملخص

تنشغل هذه الورقة بتحليل تزايد الإنفاق العسكري في منطقة المغرب الكبير خلال الفترة الممتدّة من 2010 إلى 2024، وما يرافقه من هشاشة تنموية مزمنة، وذلك في ضوء أطروحات النظرية الواقعية في العلاقات الدولية. وتتخذ الدراسة من التنافس البنيوي بين المغرب والجزائر أنموذجًا لقراءة ديناميات سباق التسلّح، واختبار مدى قدرة التصوّرات الواقعية على تفسير استمرار هذا المنحى في سياق المتغيرات الجيواستراتيجية التي عرفتها المنطقة خلال هذه المدة. وينصرف الهدف الرئيس إلى تقييم كفاءة الفرضيات الواقعية في تفسير الاختلال القائم بين ارتفاع مؤشرات التسلّح مقابل ضعف الأداء التنموي، مع الوقوف عند أثر التحولات الإقليمية والدولية في إعادة تشكيل أنماط السلوك الأمني للدول المغاربية. وباعتماد الملاحظة والتحليل المقارن، تكشف الدراسة أن تصاعد الإنفاق العسكري بين 2010 و2024 يعكس استمرارية حالة التنافس الاستراتيجي بين المغرب والجزائر، وتنامي الاستقطاب في باقي دول المغرب الكبير تحت ضغط هواجس الأمن والتهديدات الفعلية والمحتملة. ويسهم ذلك في إضعاف فرص التنمية الداخلية، على الرغم من بعض الجهود الهادفة إلى الحدّ من الفقر والهشاشة الاجتماعية، كما يعطّل إمكانات التعاون الاقتصادي المغاربي، ويُبقي جذور العداء مرشّحة للتصاعد. وتخلص الورقة إلى أن أنماط السلوكيات السائدة خلال هذه الفترة لا تساعد على بناء إدراك رشيد لمصادر القوة وتفاعلاتها وتأثيراتها في مستقبل المنطقة، ما لم تَطرأ تحولات استثنائية تُعيد هيكلة أولويات الأمن والتنمية. ويبدو أن صدور القرار 2797 عن مجلس الأمن، وما يفتحه من إمكانات لضرورة جلوس جميع الأطراف على طاولة التفاوض على أساس مقترح الحكم الذاتي بوصفه أحد أبرز الحلول الواقعية الممكنة لتسوية النزاع حول الصحراء، قد يشكّل منعطفًا من شأنه الحدّ من منطق التصعيد، وتمكين دول المنطقة من إعادة توجيه مواردها نحو مسارات أكثر استدامة في التنمية الإقليمية.

الكلمات المفتاحية: المغرب الكبير، التسابق نحو التسلح، النظرية الواقعية، التنمية.

تاريخ الاستلام: 21.12.2024 | **تاريخ القبول:** 19.12.2025 | **DOI:** 10.47932/ortetut.1774033

* الحبيب استاتي زين الدين أ. د. جامعة القاضي عياض بمراكش:
البريد الإلكتروني: e.statizineddine@uca.ma, رقم أوركيد ORCID: 0000-0003-1565-8609

Gerçekçilik Teorisi Çerçevesinde Askerîleşme Mantığı ve Kalkınma İkilemi: Büyük Mağrip Örneği

Elhabib Stati Zineddine*

Özet

Bu makale, 2010-2024 döneminde Büyük Mağrip bölgesinde artan askerî harcamaları ve buna eşlik eden kronik kalkınma kırılganlığını, uluslararası ilişkilerdeki gerçekçilik kuramının temel önermeleri ışığında incelemektedir. Çalışma, Fas ile Cezayir arasındaki yapısal rekabeti silahlanma yarışının dinamiklerini okumak ve gerçekçi yaklaşımların bu eğilimin sürmesini bölgenin söz konusu dönemde geçirdiği jeostratejik dönüşümler bağlamında ne ölçüde açıklayabildiğini test etmek için bir örnek olay olarak ele almaktadır. Araştırmanın temel amacı; askerîleşme göstergelerindeki artış ile zayıf kalkınma performansı arasındaki dengesizliği açıklamada gerçekçi varsayımların açıklayıcılık kapasitesini değerlendirmek ve bölgesel ile uluslararası dönüşümlerin Mağrip ülkelerinin güvenlik davranışlarını yeniden şekillendirmedeki etkisini ortaya koymaktır. Gözlem ve karşılaştırmalı analiz yöntemlerine dayanarak çalışma, 2010-2024 yılları arasında askerî harcamalardaki artışın Fas ile Cezayir arasındaki stratejik rekabetin sürekliliğini yansıttığını ve Büyük Mağrip'in diğer ülkelerinde güvenlik kaygıları ile mevcut ve muhtemel tehditlerin baskısı altında kutuplaşmanın arttığını göstermektedir. Bu durum, yoksulluk ve sosyal kırılganlığı azaltmaya yönelik bazı çabalara rağmen iç kalkınma fırsatlarını zayıflatmakta ve Mağrip ekonomik iş birliği imkânlarını engellemekte; aynı zamanda düşmanlık dinamiklerini canlı tutarak tırmanma ihtimalini güçlendirmektedir. Makale, bu dönemde hâkim olan davranış kalıplarının bölgenin geleceğini belirleyen güç kaynaklarını, etkileşimlerini ve sonuçlarını sağlıklı bir şekilde kavramaya katkı sunmadığını; güvenlik ve kalkınma önceliklerinin yeniden yapılandırılmasını sağlayacak istisnai dönüşümler olmadıkça bu durumun sürme eğiliminde olduğunu ortaya koymaktadır. Bu bağlamda Birleşmiş Milletler Güvenlik Konseyi'nin 2797 sayılı kararının kabulü ve bu kararın, tarafların müzakere masasına özerklik teklifini -Sahara sorununa yönelik uygulanabilir gerçekçi çözümlerden biri olarak- temel alarak oturma zorunluluğu doğurması, gerilimi azaltabilecek ve bölge ülkelerinin kaynaklarını daha sürdürülebilir bölgesel kalkınma güzergâhlarına yönlendirmesine imkân tanıyabilecek bir dönüm noktası oluşturabilir.

Anahtar Kelimeler: *Büyük Mağrip, Silahlanma Yarışı, Realist Teori, Kalkınma*

Geliş Tarihi: 21.12.2024 | **Kabul Tarihi:** 19.12.2025 | **DOI:** 10.47932/ortetut.1774033

* Elhabib Stati Zineddine: Prof, Marakeş Cadi Ayyad Üniversitesi, E-mail: e.statizineddine@uca.ma ORCID : 0000-0003-1565-8609

The Logic of Militarization and the Development Dilemma through Realist Theory: The Case of the Greater Maghreb

Elhabib Stati Zineddine*

Abstract

This paper examines the rise in military expenditure in the Maghreb region from 2010 to 2024 and the persistent developmental fragility that accompanies it, drawing on the theoretical propositions of Realism in international relations. The study adopts the structural rivalry between Morocco and Algeria as a framework for analyzing the dynamics of the arms race and for assessing the extent to which realist assumptions can explain the persistence of this trend within the broader geostrategic transformations that have reshaped the region during this period. The core objective is to evaluate the explanatory capacity of realist hypotheses in accounting for the imbalance between rising levels of militarization and weak developmental performance, while also examining the impact of regional and international shifts on the security behavior of Maghreb states. Through observation and comparative analysis, the study demonstrates that the increase in military spending between 2010 and 2024 reflects the ongoing strategic rivalry between Morocco and Algeria, as well as the intensification of polarization among other Maghreb states under the pressure of security concerns and both actual and potential threats. This dynamic undermines domestic development opportunities, despite efforts aimed at reducing poverty and social vulnerability, and hampers prospects for Maghreb economic cooperation, while sustaining the roots of hostility and leaving them prone to escalation.

The study concludes that the prevailing behavioral patterns during this period do not contribute to fostering a sound understanding of the sources, interactions, and implications of power for the future of the region, unless exceptional transformations emerge to restructure security and development priorities. In this context, the adoption of United Nations Security Council Resolution 2797, and its potential to bring all parties to the negotiating table based on the autonomy proposal as one of the most viable realist solutions to the Sahara dispute, may constitute a turning point capable of curbing escalation and enabling regional states to redirect resources toward more sustainable paths of development.

Keywords: *The Maghreb, Arms Race, Realistic Theory, Development.*

Received: 21.12.2024 | **Accepted:** 19.12.2025 | **DOI:** 10.47932/ortetut.1774033

* Elhabib Stati Zineddine: Prof, Cadi Ayyad University, Marrakech, E-mail: e.statizineddine@uca.ma ORCID : 0000-0003-1565-8609

مقدمة

تدرك الأمم، كلما اشتدّت التحولات من حولها، أن الجغرافيا وحدها لا تصنع وحدة ولا تضمن استقرارًا، وأن تقارب اللسان والتاريخ لا يكفي لإقامة تكتل قادر على الصمود ما لم تسانده إرادة سياسية مشتركة ورؤية استراتيجية طويلة المدى. وفي هذا الإطار، تبدو دول المغرب الكبير مثالًا بارزًا على مفارقة لافتة: موقع استراتيجي بين أوروبا وأفريقيا جنوب الصحراء، وروابط ثقافية ولغوية راسخة، وحدود متجاورة توحي بوحدة المصير، لكن الواقع يكشف مسارًا مغايرًا تتجاذبه التباينات والاختلالات وتثقل كاهله المعضلات الداخلية والضغوط الخارجية. فرغم المشترك الواسع بين المغرب وتونس والجزائر وليبيا وموريتانيا[1] فإنه لم يتحول بعد إلى قوة مُنتجة أو مشروع إقليمي مكتمل. وتعترضه عوائق بنيوية وظاهرة دفينة تضعف مؤسسات الدول ومجتمعاتها، وتزيد من هشاشتها في مواجهة الأزمات المتلاحقة والصدمات الاقتصادية المتكررة، وارتدادات الحرب الروسية-الأوكرانية، واهتزاز اليقين الجيوسياسي في الشرق الأوسط، وتواتر التغيرات المناخية التي تُفاقم الحاجة إلى نماذج تنموية أكثر صلابة.

وتكشف تقارير دولية متعددة أن البلدان العربية تعتبر، اليوم، من أبرز المحرّكات لسوق الأسلحة العالمي، إذ تُنعش موازنات الدول والشركات المصدّرة بعشرات المليارات من الدولارات سنويًا. ويلاحظ أن جزءًا معتبرًا من هذه الأسلحة المقتناة، بما في ذلك الأنظمة المتطورة، لا يُوجَّه بالضرورة إلى تجهيز الجيوش لدرء مخاطر واقعة أو وشيكة، بقدر ما يستجيب، في العمق، لاعتبارات تتعلق بتقوية الموقع الجيوسياسي والتنافسي للدول، وتعزيز شبكة تحالفاتها مع القوى المصدّرة للسلاح، بل وفي بعض الأحيان تأمين الأنظمة الحاكمة وحماية مصالحها إزاء أي تهديد قائم أو محتمل.

وتثير هذه الاتجاهات أسئلة جوهرية حول مدى جدوى الاستمرار في تخصيص نفقات عسكرية باهظة، بدل توجيه جزء معتبر منها نحو مجالات تُعدّ أكثر أولوية لضمان أمن الدولة واستقرارها على المدى المتوسط والبعيد. ويكتسي هذا التساؤل أهمية خاصة في سياق دولي أصبحت فيه القوة الصلبة القائمة على التفوق العسكري محلّ نقاش واسع بشأن حدود فاعليتها، لا سيما في إدارة الأزمات المركّبة التي يتعذّر فيها تحقيق الأهداف السياسية المرجوّة عبر الوسائل العسكرية وحدها. غير أنّ هذا النقاش لا ينطوي على إنكار لدور الأمن أو التقليل من أهمية القوة العسكرية في السياقات الإقليمية المعقّدة والمتغيّرة، بقدر ما يُعبِّر عن وعي متزايد بحدود الفعل العسكري وحده، وبالحاجة إلى إدماجه ضمن مقاربة أشمل للأمن تأخذ في الحسبان الأبعاد الاقتصادية والاجتماعية والمؤسسية.

وفي هذا الإطار، تمثّل القوة الناعمة، بوصفها الوجه الثاني للقوة وفق تصور جوزيف صموئيل ناي[2] (Joseph Samuel Nye)، ركيزة مكمِّلة وحاسمة في تعزيز التأثير والنفوذ. فامتلاك

1 الحبيب استاتي زين الدين، «المنطقة المغاربية وإشكالية هجرة الكفاءات: في الحاجة إلى استخلاص الدروس،» المناهل، وزارة الثقافة والشباب والرياضة -قطاع الثقافة-، ع 100 (2020)، 385.

2 للاستزادة بخصوص القوة الناعمة، يراجع: جوزيف س. ناي، القوة الناعمة: وسيلة النجاح في السياسة الدولية، ترجمة محمد توفيق البجيرمي (الرياض: مكتبة العبيكان، 7002)، 24 وما بعدها.

الدولة لمقوماتها، وحسن توظيف مواردها الثقافية والاقتصادية والمؤسسية، يشكّل مصدرًا أساسيًا للقوة لا يقلّ أهمية عن القدرات العسكرية. كما تكتسب القوة الناعمة وزنًا متزايدًا على المستوى الاقتصادي، إذ تُسهم في خلق بيئة آمنة ومستقرة تُعزّز الثقة في الاختيارات المؤسسية الوطنية، وتدعم الانفتاح التدريجي للدولة وقدرتها على التمدّد الإقليمي والدولي[3] من دون الوقوع في كلفة الصدام أو منطق الاستنزاف.

وما يدعو إلى العناية البحثية بأهمية التوازن بين مختلف أنواع القوة، ويبعث على القلق في الوقت نفسه، أن الجزء الأكبر من العبء العسكري المغاربي، مثلًا، تتحمله بلدان لا يحيط بها جغرافيًا سوى بلدان عربية بينها مشتركات عديدة لم تُفلح في التخفيف من الرغبة في التفوق الإقليمي أو التوق إلى موازنة قوة موجودة أو السعي إلى اكتساب الحد الأدنى من القدرة التي تمكّن من عدم الوقوع تحت طائلة الابتزاز أو التبعية أو الاستمالة بفعل الخلاف الجزائري-المغربي، وهو ما يتجسد في التنافس المستمر بين البلدين في توسيع حجم الإنفاق على السباق نحو التسلح الذي يفيد «وجود طرفين أو أكثر يعتبرون أنفسهم في علاقة نديّة أو عدائية. وقد يدفعهم ذلك إلى تطوير قدرات أسلحتهم بمعدلات عالية ومتسارعة، كما يحفزهم على بناء قواتهم العسكرية في ضوء تجربة العلاقات الماضية والحاضرة والمتوقعة للسلوك العسكري والسياسي للدول المنافسة لهم.»[4]

وبقدر ما تأخذ هذه الورقة في الحسبان أن تسابق دول المغرب الكبير نحو التسلح يندرج ضمن ضرورات امتلاك القوة وردع الخصوم الفعليين أو المحتملين، سواء كانوا خارجيين أو داخليين، فإنها تنشغل، بصورة رئيسة، بتأثير ضعف التنمية الاقتصادية والاجتماعية في هذه البلدان نتيجة ارتفاع الإنفاق العسكري والأمني. فبعض الدول المغاربية توجّه أكثر من ستة في المائة من ناتجها الداخلي الخام إلى ميزانيات الدفاع، وهو مستوى يفوق بثلاثة أضعاف المتوسط العالمي، ويطرح تساؤلات حول انعكاساته على مسارات التنمية البشرية، والبنية التحتية، والاستثمار الاجتماعي.[5] ويزداد ثقل هذا التساؤل مع تنامي التنافس الاستراتيجي بين المغرب والجزائر خلال العقدين الأخيرين، إذ أدى ارتفاع فاتورة صفقات الأسلحة إلى إعادة تشكيل أولويات الإنفاق العام بطريقة تُزاحم احتياجات التحديث الاقتصادي وبناء المؤسسات المنتجة.

وفي هذا السياق، تحاول الورقة اختبار مدى قدرة النظرية الواقعية على تفسير الارتباط بين تضخم ميزانيات الدفاع وضعف مؤشرات التنمية في المنطقة المغاربية، في ظل تحولات جيواستراتيجية عميقة. وتفترض الورقة أن التسلح يعود، بوجه عام، إلى عاملين متداخلين: أولهما الشعور بالخوف نتيجة إدراك تعاظم دور دولة مجاورة، وهو ما يدفع الدولة إلى تعزيز ترسانتها العسكرية لإعادة التوازن أو لإثارة مخاوف الطرف الآخر؛ وثانيهما التفاعل

3 علي باكير، «نحو إطار نظري في صناعة القوة الناعمة،» سياسات عربية، ع 53 (2021)، 70.

4 Colin S. Gray, "The Arms Race Phenomenon", *World Politics* 24, no. 1 (1971), 40.

5 Stockholm International Peace Research Institute (SIPRI), SIPRI Yearbook 2023. Armaments, Disarmament and International Security (SIPRI, 2023), 112-118.

بين السياسي والاقتصادي في صياغة السلوك الخارجي للدولة، إذ لا يمكن تفسير قرارات شراء السلاح بمعزل عن مصالح النخب المحلية وديناميات الاقتصاد السياسي الداخلي[6]. وهذا التداخل يكشف الحاجة إلى مقاربة أكثر شمولًا، تستفيد من أدوات الاقتصاد السياسي الدولي ومن الاستبصارات التي تقدمها المنظورات الاجتماعية،[7] دون التفريط في جوهر التحليل الواقعي القائم على مركزية القوة.

وترى الورقة أن ضعف إدماج البعد التنموي في التحليل الواقعي -داخل الأدبيات العربية خصوصًا- يحدّ من القدرة على استيعاب طبيعة القوة كمنظومة متعددة الأبعاد، تضم إلى جانب القدرات العسكرية عناصر الإنتاج والابتكار والتعليم والاندماج الاجتماعي. فالدول الكبرى لا تبني قوتها على التفوق العسكري وحده، بل على قاعدة صلبة من التنمية الصناعية والاقتصادية التي تتيح تمويل التسلح دون الإضرار بأسس القوة نفسها.[8] ومن ثَمّ، فإن إغفال هذا الترابط يجعل قراءة سباق التسلح المغاربي قاصرة عن الإحاطة بآثاره الفعلية على التنمية، خاصة في سياق التنافس المغربي-الجزائري الذي يستهلك موارد كان يمكن توجيهها نحو القطاعات الإنتاجية والخدمات الاجتماعية.

تبعًا لذلك، يتخذ هذا العمل الملاحظة والتحليل والمقارنة أدوات منهجية للكشف عن الطريقة التي تفسّر بها النظرية الواقعية ترجيح كفة التسابق نحو التسلح في المنطقة المغاربية على المجالات ذات الأولوية لتقليص نسب الفقر والهشاشة الاجتماعية، مع العلم أن طموحًا بحثيًا على هذا القدر من التعقيد والحساسية من حيث تعدد رهاناته والفاعلين فيه، علاوة على الغموض والتكتم الذي ما يزال يحيط بأغلب معطياته من كلّ جانب، يجعل حظوظ البحث في قضاياه وإشكالاته أكثر وجوبًا للتريث وعدم الجزم والاندفاع.

وللإحاطة العلمية بهذا الموضوع، تنقسم الورقة إلى مبحثين متداخلين. يشتبك الأول مع أفكار النظرية الواقعية وفرضياتها لتحليل أوجه ارتفاع الإنفاق العمومي على الأسلحة على الرغم من ضعف معدلات التنمية، بالاستناد إلى إحصاءات مستمدة من وثائق وتقارير وطنية ودولية عن الإنفاق العسكري في دول المنطقة. بينما يستعرض المبحث الثاني جوانب تأثير هذا الإنفاق على مسار التنمية الاقتصادية والاجتماعية.

الإنفاق على الأسلحة مغاربيًّا: دلالات ومؤشرات

تعد منطقة المغرب الكبير إقليمًا جيوسياسيًّا بهوية تاريخية تكرَّست عبْر قرون طويلة، وظهرت عبر مراحله التاريخية المختلفة «دول مركزية» تنقلت بين الوحدات، طبقًا للبنية

6 Robert Gilpin, *Global Political Economy: Understanding the International Economic Order* (Princeton UP, 2001).

7 حمشي، «المغرب العربي بوصفه إقليما بلا إقليمية،» 155.

8 Paul Kennedy, *The Rise and Fall of the Great Powers: Economic Change and Military Conflict from 1500 to 2000* (Random House, 1987).

الجيوسياسية للإقليم في كلّ مرحلة، على أن المغرب الأقصى كان الأكثر حُظوة بموقع المركزية في أغلب الفترات. ومع استقلال دوله وانحسار الوجود الاستعماري المباشر، بدأت تظهر دعوات وحدوية، أو تكاملية بين هذه الدول، لكن مشكلات الحدود السياسية الموروثة عن الاستعمار، وتباين التوجهات والخيارات الاستراتيجية، وتبعات الإرث التاريخي لكلّ وحدة من وحدات هذا الإقليم،[9] جعلت العلاقات فيما بينها محدودة يطغى عليها التوجس والصراع. ويستند الواقعيون في شرحهم إلى حضور الصراع بوصفه سمة تاريخية، حتمية ودائمة، في العلاقات الدولية إلى مفهوم المعضلة الأمنية التي تواجهها الدول باستمرار؛ وهو مفهوم محوريّ يتعلق بالبنية الفوضوية للنظام الدولي، إضافة إلى سمة الاعتماد على النفس. فالدول، بسبب الفوضى، ومن ثمَّ اعتمادها على نفسها، تتخذ إجراءات لتعزيز أمنها، وبصرف النظر عن كونها ذات طابع دفاعي أو هجومي، فإن الدول الأخرى تفسر تلك الإجراءات على أنها خطر محتمل على أمنها الداخلي.

إن حالة الشك وعدم الثقة الدائمتين، مثلًا، بين المغرب والجزائر حيال التحركات التي تقوم بها كل دولة على حدة أدّت بباقي الدول المغاربية إلى دوامة من الفعل ورد الفعل، أي إن الشعور بالخوف يولّد مزيدًا من الشعور بعدم الأمن، ما يجعل احتمال قيام الصدام العسكري غير مستبعد نهائيًا. وحتى عندما يسود اعتقاد بأن دولة ما تضمر نيّات حسنة، يبقى هناك تخوف دائم من أن تتبدل هذه النيات[10]. وعليه، يشدّد كينث والتز(Kenneth Waltz)، وهو أحد أبرز رواد المدرسة الواقعية الجديدة، على غياب ضمانات تحول دون أن تهاجم إحداها الأخرى، أو تبسط إحداها هيمنتها ونفوذها على الدول الأقل قوة في ظل نظام يفتقر إلى وجود سلطة مركزية تضبط تصرفات وسلوك الدول التي تبقى في حالة من التنافس فيما بينها من أجل القوة التي تضمن لها البقاء[11].

يتواصل هذا الاعتقاد ويتجذّر، وربما لن نتفاجأ إذا تحوّل تدريجيّا في المنطقة المغاربية إلى «عقيدة» تدفع سكّانه، من خلال استغلال فجّ لوسائل الإعلام ومواقع التواصل الاجتماعي، إلى التصرف تجاه بعضهم كما لو أنهم معزولون حقًّا في جزيرة، بل تُعدُّهم -إذا استمرت على هذا الحال- إلى تقبُّل أسوأ السيناريوهات ضمن مجال جغرافي وُلد فيه المشروع المغاربي مأزومًا. وقد سبق أن نبّه الرئيس التونسي الأسبق المنصف المرزوقي، في مناسبات عدة، إلى التداعيات الجسيمة لاستمرار جمود الاتحاد المغاربي على جميع المستويات، وحَدّها من ازدهار بلدان المنطقة، قائلًا في إحداها: «نحن الآن في مهب الرياح، لأن الدول الصغيرة ذات الحدود المغلقة

9 وليد عبد الحي، «العلاقات المغربية الجزائرية: العقدة الجيوستراتيجية،» سياسات عربية، ع 6 (2014)، 32.

10 محمد حمشي، «المغرب العربي بوصفه إقليما بلا إقليمية: قراءة في تقرير صندوق النقد الدولي عن الاندماج المغاربي (2018)،» سياسات عربية، ع 43 (2020)، 159.

11 Kenneth Waltz, *Theory of International Politics* (Random House, 1979). Robert Gilpin, *War and Change in World Politics* (Cambridge University Press, 1981), 91.

لا يمكن أن تحقق النهضة ولا الحرية لنفسها.»[12] إذ على عكس الأوضاع الطبيعية السائدة في معظم النظم السياسية الغربية التي استطاعت أن تتجاوز عديد الخلافات القائمة بينها بعد سنوات طويلة من النزاعات المسلحة، يظهر جليًّا أن الصراع ما يزال السمة الدائمة والمميزة للنظم السياسية في بلدان المنطقة كلّها، بدلًا من السلام والاستقرار. وللمفارقة، على الرغم من اللحظات التي يسود فيها الجفاء والتوتر المباشر والخفي بين المغرب وفرنسا -على سبيل المثال لا الحصر- أو هذه الأخيرة والجزائر، هناك شبه إجماع -إن لم أقل تجذُّر- على مستوى الخطاب السياسي والإعلامي والمخيال الجماعي، وحتى من جانب عدد كبير من الأكاديميين، بأن البلدين المغاربيين سيحافظان على الدوام على جوهر ما تربطهما من وشائج ومنافع وتطلعات مشتركة معها. في المقابل، ظلت القطيعة المحتملة بين الجزائر والمغرب واردة دومًا عكس روابط الدين والتاريخ وقدر الجغرافيا، وعاملًا محددًا «للنظام الإقليمي المغاربي»، حيث أثّر الاستقطاب الإقليمي في تشكيل التفاعلات البينية في المنطقة المغاربية، خاصة بعد اندلاع نزاع الصحراء[13].

تقارب النظرية الواقعية هذه المفارقة من جانب اختلاف المصالح وتعارضها في مناطق جيوستراتيجية، وهو ما يجعل أيّ حديث عن الاندماج أو التكامل معلَّقًا في ظل هشاشة الثقة بين دول المنطقة وانشغالها غير السويّ بما يقع خارج بيتها الداخلي الذي يتعين أن يحظى بالأولوية لأسباب موضوعية، كما سنرى في الجزء الثاني من هذا البحث. ولعل أبرز شاهد على الشك في نوايا الطرف الآخر هو ارتفاع الإنفاق العسكري والتسابق نحو التسلح في الميزانية العامة بالمقارنة مع تغطية المتطلبات الاجتماعية.

دلالة الإنفاق العسكري

تتعدّد الدلالات المفهومية للإنفاق العسكري بين نطاق ضيّق وآخر واسع، ويُفضي هذا التعدّد إلى اختلافات جوهرية في القياس والمقارنة والتحليل. ففي الدلالة الضيّقة، يُختزل الإنفاق العسكري في «الموارد المرصودة للدفاع داخل الموازنة العامة للدولة»، أي تلك الاعتمادات المالية التي تُخصَّص رسميًا لمواجهة تهديد خارجي أو التعامل مع خطر واقع بالفعل، أو لتمكين الدولة من استخدام قوّتها العسكرية في تحقيق أهداف توسعية.[14] غير أن هذا التعريف الضيّق لا يستوعب كامل أوجه الإنفاق المتّصل بالوظائف العسكرية، بل يركّز فقط على ما يظهر في أبواب الميزانية الرسمية، وهو ما يؤدي إلى استبعاد عناصر أساسية ذات طبيعة عسكرية أو شبه عسكرية تقع ضمن الإنفاق الحكومي لكنها لا تسجّل صراحة تحت بند «الدفاع.»[15] كما أنه يغفل الأنشطة المدنية المندرجة ضمن ميزانيات مؤسسات الدفاع، مثل مشاريع الأبنية

12 «المرزوقي يدعو إلى إعادة إحياء الاتحاد المغاربي،» هسبريس، 01.04.2024، https://cutt.us/sujYW

13 عبد النور بن عنتر، «سياسة الجزائر الأمنية: تحوّلات ومعضلات في سياق القلاقل إقليميا والحراك داخليا،» سياسات عربية، ع 55 (2022)، 23.

14 طلال محمود كداوي، الإنفاق العسكري الإسرائيلي 1965-1990 (مركز دراسات الوحدة العربية، 1997)، 38-39.

15 عبد الجليل زيد المرهون، «اتجاهات الردع في الخليج،» سياسات عربية، ع 22 (2016)، 32، بتصرف.

الاستراتيجية، وأعمال الإغاثة ذات الطابع العسكري المدني، ومهام لوجستية متعددة. واعتماد هذا المعنى الضيّق يجعل تقدير الإنفاق العسكري أقل من مستواه الحقيقي، ويؤدي بالتالي إلى مقارنات مضلّلة بين الدول، خصوصًا إذا كانت الدول تختلف في مستوى الشفافية وطريقة هيكلة بنود موازناتها الدفاعية.[16]

وفي مقابل هذا التصوّر المحدود، تتجه المقاربات الحديثة- وخاصة تلك التي تعتمدها المؤسسات البحثية الدولية مثل معهد ستوكهولم لأبحاث السلام (SIPRI) - إلى توسيع نطاق مفهوم الإنفاق العسكري ليشمل جميع الموارد التي تخصّصها الدولة من ناتجها القومي الإجمالي لقطاعي الدفاع والأمن، سواء تعلق الأمر باستيراد الأسلحة، أو تصنيعها محليًا، أو تمويل برامج التطوير والبحث العلمي المرتبطة بالارتقاء بالتكنولوجيا العسكرية، أو تغطية نفقات القوات المسلحة من رواتب وتعويضات، أو تمويل المؤسسات التعليمية والتدريبية العسكرية، أو دعم البنية العسكرية التحتية.[17] ويستند هذا المعنى الواسع إلى اعتبار أن القوة العسكرية هي محصلة بنية متكاملة تشمل الصناعات الدفاعية، والموارد البشرية، والبنية التحتية، والتكنولوجيا العسكرية، والقدرة على الإدامة اللوجستية، وليس مجرد اعتمادات مالية ظاهرة في وثيقة الميزانية.

ولأن حقل العلاقات الدولية يتميز عن غيره من حقول المعرفة الاجتماعية بوجود عدة نظريات متنافسة في تقديم تفسيراتها لتعظيم القوة بين الفاعلين الأساسيين داخل الساحة الدولية، والذين تختلف النظريات بشأن عددهم وأهمية ومحورية تحكُّمهم أو تدخلاتهم في إدارة القضايا الدولية، اختارت هذه الدراسة في سعيها إلى فهم محفزات وآثار التسابق نحو التسلح أن تستعين بالنظرية الواقعية التي احتلت موقعًا بارزًا، على مدار النصف الثاني من القرن العشرين، في معظم النقاشات والسجالات التي دارت في مجال العلاقات الدولية[18] على الرغم من أنها نتاج تقاليد تاريخية وفلسفية طويلة.[19]

وأنطلق في هذا التمرين من فكرة رئيسة مضمونها أنه بصرف النظر عن التطورات التي شهدها النظام الدولي من تنامي الدور الذي تمارسه الأطراف غير الحكومية، وتزايد وتيرة الاعتماد المتبادل المكثف بين اقتصادات الدول بفعل تطور الاتصالات والمواصلات،[20] فإن العالم النامي أو السائر في طريق النمو، وضمنه البلدان المغاربية، ما يزال واقعيًّا بنسب كبيرة؛ ذلك أنه يبدو أن الدولة في هذا العالم ظلت هي الفاعل الرئيس في أغلب مناطقه، ومازالت الصراعات

16 International Institute for Strategic Studies (IISS), The Military Balance 2022 (IISS, 2022), 25-31.

17 SIPRI, 145.

18 Michael C. Williams, *The Realist Tradition and the Limits of International Relations* (Cambridge UP, 2005), 1.

19 أحمد قاسم حسين، الاتحاد الأوروبي والمنطقة العربية: القضايا الإشكالية من منظور واقعي (المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2021)، 129.

20 محمد أحمد أبوزيد، «الواقعية الجديدة ومستقبل دول التعاون الخليجي بعد ثورات الربيع العربي،» سياسات عربية، ع 17 (تشرين الثاني/ نوفمبر 2015)، 14 وما بعدها.

الداخلية والإقليمية والدولية تحكم العلاقات بين الأفراد والجماعات والدول انسجامًا مع «مبدأ» فوضوية المجتمع الدولي. ومن زاوية ثانية، فأن وجود الدولة ذاته في هذا العالم النامي مهدّد بدرجة كبيرة، سواء كان ذلك من جانب بعض الجماعات المحلّية الداعية إلى الانفصال والحكم الذاتي، أو من جانب قوى إقليمية غير متجانسة، أو من جانب قوى دولية توسعية تسعى لفرض هيمنتها على هذه الدول أو إبقاء الوضع على ما هو عليه؛ من أجل التحكم في مواقعها الجغرافية الحيوية، أو السيطرة على مواردها الطبيعية ذات الفائدة الاقتصادية الكبيرة للنظام الاقتصادي العالمي.

تفاعل «المحلي» و «الخارجي» من منظور واقعي

على الرغم من الاختلاف في التحليل بين مفكري الواقعية الكلاسيكية، إلا أنهم يتفقون، عمومًا، على مجموعة من القواسم المشتركة التي شكلت عناصر التحليل الواقعي الكلاسيكي،[21] نذكر منها استنادهم إلى التاريخ، والتأكيد على الدور الفعال للقوة في العلاقات الدولية وضرورة التسلح بها لتحقيق المصلحة الوطنية، وتركيزهم على الدولة باعتبارها نواة للتحليل من خلال جعلها الفاعل الرئيس لتوجيه السلوك الدولي، والإقرار بالفصل التام بين الأخلاق والسياسة،[22] ومنحهم أهمية كبيرة لمبدأ توازن القوى لأن السياسة الدولية، ككل سياسة، هي صراع من أجل القوة. ومهما تكن الأهداف النهائية للسياسة الدولية، بحسب هانس مورغنتاو (Hans Morgenthau)، القوة هي دائمًا الهدف العاجل.[23] غير أن التحولات التي عرفها العالم فرضت تجديد المنهج التحليلي والمفاهيمي للنظرية الواقعية، وهو ما أدّى إلى بروز الواقعية البنيوية (يطلق عليها أحيانًا الواقعية الجديدة) التي أسهم عدة مفكرين في تحديد فرضياتها ومفاهيمها النظرية الأساسية، من أمثال كينيث والتز (Kenneth Waltz)، وروبرت غلبن (Robert Gilpin)، وستيفن كريزنر (Stephen Krasner)، وروبرت كيوهان (Robert Keohane)، وجون ميرشايمر (John Mearsheimer)، وجورج مودلسكي (George Modelski)، الذين كان همُّهم دفع النقد الذي وجّه للواقعية بأنها تصوير ساذج ومبسَّط للعلاقات الدولية، وسعوا إلى إسباغ الصفة العلمية والموضوعية عليها.[24] بمعنى إخراجها من المفهوم الكلاسيكي والتحليلي البديهي إلى مستوى من التحليل أكثر موضوعية وفاعلية للوصول بها إلى نظرية علمية[25] قادرة على رصد وتحليل التحولات الكبرى التي تطرأ على مستوى النظام الدولي الذي

21 للاستزادة بخصوص النظرية الواقعية (بفرعيها الكلاسيكي والبنيوي)، يراجع مثلا.
Edward Hallett Carr, *The Twenty Years Crisis 1919-1939: An Introduction to the Study of International Relations*, 2nd ed. (Harper & Raw, 1964). Hans J. Morgenthau, *Politics among Nations: The Struggle for Power and Peace* (Alfred A. Knopf, 1973).

22 جندلي عبد الناصر، التنظير في العلاقات الدولية بين الاتجاهات التفسيرية والنظريات التكوينية (دار الخلدونية، 2007)، 147.

23 عبد الناصر، التنظير في العلاقات الدولية ، 139.

24 يوسف محمد الصواني، نظريات في العلاقات الدولية (منتدى المعارف، 2013)، 79.

25 Kenneth Waltz, "The Stability of a Bipolar," Daedalus 93, no. 3 (1964). Robert Gilpin, *War and Change in World Politics* (Cambridge UP, 1981).

أحمد محمد أبو زيد، «كينيث والتز: خمسون عاما من العلاقات الدولية (1959-2009): دراسة استكشافية،» المجلة العربية للعلوم

يتكون من مجموعة من الوحدات Units (دول، ومنظمات حكومية وغير حكومية، وأفراد).[26] وهذه الوحدات تسعى جديًّا، اعتمادًا على ما تملكه من مقومات القوة (المادية وغير المادية)، إلى تعزيز قوتها الاقتصادية والعسكرية وبناء الشراكات والتحالفات على نحو يحقق مصالحها، ويضمن أمنها واستقرارها، بحيث تواصل، من منظور واقعيّ، رحلة السعي للبقاء في نظام دولي فوضوي لا توجد فيه سُلطة أعلى من الدول نفسها تمتلك حقّ الوصاية وتوجيهها وفرض إرادتها على الآخرين.[27]

وبقدر ما تستدعي هذه الورقة مجمل التغيرات الجوهرية التي مسّت بنية النظام الدولي والعلاقات البينية لوحداته، والتي كرست مبادئ -إن لم أقل طموحات- التحرر والاستقلال والتعامل بالمثل، وأقرت حقوق الدول - باعتبارها الفاعل المحوري- في السيادة وتقرير المصير والتمتع بخيراتها الطبيعية بحرية ودون ضغط أو تدخُّل، ربما يدرك الحس السليم أن هذه الفاعلية المحلية نفسها يجري تشكيلها وإعادة تشكيلها على نحو دائم بما يحمله تطور النظام العالمي، ومن ثمّ، يدرج السياسة الخارجية للقوى الكبرى تجاه المنطقة المغاربية تلقائيًا في خانة المتغيرات الجيواستراتيجية العالمية دون إعطاء أهمية كبيرة للبعد الإقليمي أو المحلي. ومن خلال لفظ «تلقائي»، أروم الإشارة إلى دور القوى التقليدية التي لم تُستبعد تمامًا من لعبة ما بعد الاستعمار التي اندست «سرًا»، وتبعًا لمجموعة من التوافقات غير المعلنة، في أعقاب الاستقلال. وهذه اللعبة بقيت أقوى في المغرب الكبير، وذلك بسبب حدّة الصراعات الظاهرة أو الخفية التي طرأت فيها، والتي ما زالت رحاها تدور إلى اليوم، وغالبًا تحت ذرائع مضللة، وبأساليب ملتوية.

يظل المغرب الكبير، والحالة هاته التي تروق للواقعيين، مجالًا لعملية مستمرة من الاستقطاب والإضعاف، تخوض فيه القوى العظمى لعبة القوة والأيديولوجيا ذات المحصل الصفري،[28] وإن اكتسب بعض الفاعلين المحليين نسبيًّا ثقة وقدرة إضافيتين على الرد على الإذلال، ويتطلّعون إلى دور قوة إقليمية (حالة المغرب والجزائر) كانت في السابق تحت سيطرة القوى القديمة. بطبيعة الحال، للمغرب الكبير خصائصه المميّزة، ولديه أيضًا تاريخ طويل، ويبدو أنه يُولّد أزماته الخاصة. وعلى المنوال نفسه، ننقاد إلى اعتبار العامل الخارجي في هذه المنطقة أحد العناصر الضرورية واللازمة لتفسير الأحداث الحاسمة التي تجري فيه، ولا سيما أنه لا يبدو في الأفق القريب أن هناك إمكانية لخروج بعض القوى الاستعمارية منها. ومن خلال مجموعة من الروابط، وباستثمار مراجعات روبرت غلبن (R. Gilpin)، سنرى كيف تحاول، مثلًا، بعض القوى جاهدة (كما هو الشأن بالنسبة لفرنسا والولايات المتحدة الأمريكية على

السياسية، ع 27 (2010)، 103.

26 أحمد قاسم حسين، «النظام الدولي وجائحة كورونا: سجال تأثير الأوبئة في العلاقات الدولية،» سياسات عربية، ع 50 (2021)، 40.

27 أحمد أبو زيد، «الواقعية الجديدة»، ص 14.

28 أميتاف أشاريا وباري بوزان، «تشكيل العلاقات الدولية العالمية: أصول حقل العلاقات الدولية وتطوره في ذكراه المئوية،» عالم المعرفة، ع 502 (المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2023)، 243.

سبيل المثال) تكريس هيمنتها من خلال زيادة الكفاءة الاقتصادية، والحرص في نفس الوقت على تعظيم المكاسب المتبادلة بين باقي الدول[29] المؤثرة في المنطقة المغاربية. أولًا: لخدمة مصالحها وأولوياتها الاستراتيجية، وثانيًا: لتعزيز قوتها وتأمين معاقل نفوذها المرتبطة بإرث السيادة التاريخية التي مارستها على القارة الإفريقية عامة؛ وهو ما يعني أن علاقات «التعاون»، مثلًا، بين فرنسا والدول المغاربية غير منفصلة، في العمق، عن سياق النزعة الاستعمارية وما تحيل إليه، تصريحًا أو تلميحًا، من رغبة في إطالة التبعية والاستغلال وفقًا لحسابات دقيقة لنسب الربح والخسارة على المستويين المتوسط والطويل.

وعلى هذا الأساس، يشير الواقعيون إلى أن أي خطوة نحو التعاون في أيّ مجال، ومنه الأمني مثلًا، تمليها القوى الكبرى التي تسعى من خلاله لتحقيق مصالحها الذاتية؛ بمعنى أن المنظمات والمؤسسات التي تنشأ في النظام الدولي ليست سوى متغيرات وسيطة، في حين يبقى ميزان القوى المتغير المستقل في السياسات الدولية. بناءً على ذلك، فالنتيجة المتوقعة للتعاون الأمني والعسكري والاستخباراتي والقضائي الذي تحرص القوى الكبرى على تعزيزه مع دول المنطقة، منظورًا إليها من جانب الضعف، هو حفظ المنافع المكتسبة والمحافظة على الوضع القائم (statues quo). واقعيًّا، وبصرف النظر عن التغيرات التي طالت الاتحاد الأوروبي من الداخل، خلقت هيكلية النظام الدولي، سواء في ظل الثنائية القطبية أو القطب الأحادي أو تعدد الأقطاب، ظروفًا مواتية لمواصلة الدول الأوروبية التفكير في ما بات يعرف بـ «المصلحة المشتركة الأوروبية» في أفق تعزيز موقعها في اقتصاد مترابط وذي قدرات تنافسية عالية على المستوى الدولي، ويحافظ على الروابط السياسية والاقتصادية والثقافية للدول الأعضاء بمستعمراتها القديمة في آسيا وأمريكا اللاتينية وأفريقيا.[30]

ولئن نجحت إلى حدّ ما في إخراج نفسها من حالة الفوضى من خلال تذويب خلافاتها وتوحيد قدراتها وإمكاناتها على المستوى الداخلي، يظهر أنها تجعل هذا الرهان عسيرًا في المغرب الكبير. وحتى لو سلمنا بحدود قدرة النظرية الواقعية على شرح صمود عملية التكامل الأوروبي وتفسيره بعد قرار بريطانيا بالخروج من الاتحاد الأوروبي والسوق الأوروبية المُوَحَّدة، خصوصًا على مستوى السياسة الخارجية والأمنية والدفاعية المشتركة وإن لم يتمكن بعد من الانسلاخ التام عن التبعية للولايات المتحدة الأمريكية في صدد الكثير من القضايا الدولية الراهنة،[31] يبدو أن رغبة القوى المؤثرة فيه في إزالة مصادر التهديد وردع الدول المغاربية الساعية إلى زيادة القوة أو الإخلال بتوازنها ما تزال تدفعها، إذا استعنّا بأطروحة هربرت باترفيلد (Herbert Butterfield)، إلى احتواء المعضلات الأمنية والعمل على استباق نتائجها المتوقعة غير المرغوبة.[32]

29 Gilpin, *War and Change*, 106.

30 قاسم، الاتحاد الأوروبي، 150.

31 إدريس لكريني، «الصين وتحوّلات النظام الدولي الراهن،» المستقبل العربي، ع 461 (2017)، 116.

32 للاستزادة حول زيادة القوة والاستعداد الدائم للأسوأ، يراجع على سبيل المثال.
John H. Herz, International Politics in the Atomic Age (Columbia UP, 1961).

وإن كانت النظرية الواقعية تفترض أن السياسة الدولية صراع بين دول تعتمد على نفسها ضمن منظومة دولية فوضوية، يترتب عليه تنافس دائم من أجل تعظيم القوة والمصلحة الذاتية، يبدو أن البلدان المغاربية، عادة، ما تقدّم نفسها، ولا سيما في علاقاتها مع بعضها البعض، أنها تتكئ في قراراتها على غيرها، وتتصرف أحيانًا ضد مصالحها الوطنية العليا، مُبدّدة قوتها، وراهنة مصيرها، وبخاصة بين طرفي النزاع في مسألة الصحراء، بمجلس الأمن الذي ما يزال يتداول فيه (النزاع) منذ نصف قرن كما لو أنه ليست هناك إرادة دولية مشتركة فعلية لتجاوز مشكل الصحراء، ومن ثم الخلاف المغربي- الجزائري، سواء عبر الأمم المتحدة أو عبر الضغط عليهما، وبشكل أكبر الجزائر، للجلوس على طاولة الحوار وإيجاد حلّ نهائي وحاسم. وثمة ما يكفي من الأدلة على أن ضعف الارتباط بين السياسات المحلية والدولية يضر بالقيمة التحليلية للنظرية الواقعية. بمعنى يُجانب الصواب من يظن أن السلوك الخارجي للبلدان المغاربية يتأثر بموازنة القوة في المنطقة بسبب الحضور المتنامي للقوى الإقليمية والدولية، وما ترسم من استراتيجيات وسياسيات للمنطقة فقط، بل أصبح من الصعب على نحو متزايد على أولئك الذين تُركوا في الخلف الاستمرار في تعليق الفشل على رواية «الغير» كسبب لفقرهم وتخلُّفهم عن مسايرة المتغيرات الجارية على الرغم من أن ذلك لم يمنع عددًا من قادة دول الجنوب من الاستمرار في الاضطلاع بذلك. فالتركيز على العامل الخارجي وتحميل الآخر تبعات كل الأمور يضخمان التهديدات الخارجية ودور القوى الأجنبية، بينما يقزمان الأسباب الحقيقية لترهّل الدولة في المنطقة ومشكلاتها الأمنية السياسية والداخلية ويحجبان الرؤية عنها. أقصد لو تخيّلنا التزامًا داخليًا بين فاعليها السياسيين والاجتماعيين بصون الديمقراطية، وتوجّهًا حازمًا من طرف سلطاتها السياسية نحو تطبيق مبادئها، من جهة سيادة القانون، والتوزيع العادل للثروة، وربط المسؤولية بالمحاسبة، والاستثمار الجيد في التعليم، وتوفير ضروريات الحياة الكريمة، لما كانت العوامل الخارجية على هذه الدرجة من التأثير فيها.

مؤشرات الإنفاق العسكري

لا تقتصر معدَّلات الارتفاع الكبيرة في الإنفاق العسكري على البلدان الكبيرة والمتقدّمة، بل إن بلدانًا كثيرة نامية في آسيا وأفريقيا وأميركا اللاتينية تنفق قسمًا كبيرًا من ثرواتها الوطنية على اقتناء الأسلحة، وذلك لدواعي حماية الأمن الوطني ومواجهة التهديدات الخارجية الفعلية والمفترضة، وبسبب النزاعات الداخلية والصراعات الإقليمية.. إلخ. وتشير الوقائع والمعطيات المتوافرة إلى أن هذه البلدان هدرت خلال العقود الأخيرة موارد ضخمة على التسلُّح، كان من الممكن أن توجّهها لمواجهة الفقر والتخلف، ولتحقيق التنمية المستدامة لشعوبها.[33] أنفقت الحكومات في جميع أنحاء العالم في المتوسط 6.2 % من ميزانياتها على الجيش، أو 282 دولارًا للشخص الواحد.[34] وفي تقريره السنوي للعام الماضي، سجل معهد ستوكهولم الدولي لأبحاث

33 محمد دياب، «جدلية العلاقة بين الإنفاق العسكري والتنمية الاقتصادية،» مجلة الدفاع الوطني، ع 75 (2011).

34 معهد ستوكهولم الدولي لأبحاث السلام (سيبري SIPRI)، ملخص الكتاب السنوي 2023، التسلح ونزع السلاح والأمن الدولي، (معهد ستوكهولم الدولي لأبحاث السلام، 2023)، 8.

السلام Stockholm International Peace Research Institute (SIPRI) أن الإنفاق العالمي على التسلح زاد خلال عام 2023 بنسبة 6.8% عن عام 2022 إلى تريليونين و443 مليار دولار بسبب اندلاع الحروب أو الخشية من اندلاعها. واستحوذت الولايات المتحدة على ثلث الإنفاق العسكري العالمي خلال العام الماضي بما قيمته 916 مليار دولار، في حين رفعت الصين إنفاقها العسكري للعام الـ29 على التوالي بزيادة قدرها 6% إلى 296 مليار دولار.[35] وزادت روسيا إنفاقها الدفاعي بنسبة 24% إلى 109 مليارات دولار، في حين زادت أوكرانيا إنفاقها بنسبة 52% إلى 65 مليار دولار، وتلقت مساعدات من دول أخرى بقيمة 35 مليارًا أخرى.

وكانت آسيا وأوقيانوسيا هي المنطقة التي تلقت أكبر حجم من واردات الأسلحة الرئيسية في السنوات 2018 - 2022، وهو ما يمثل 41 % من الإجمالي العالمي، يليها الشرق الأوسط (31%)، وأوروبا (16 %)، والأمريكيتان (8.5 %)، ثم أفريقيا (5.0 %). وظلت هذه الأخيرة ما بين2022 - 2013 المنطقة الوحيدة التي انخفض فيها الإنفاق العسكري، إذ انخفض بنسبة 5.3 في المئة. وكان هذا أول انخفاض في المنطقة منذ عام 2018 والأكبر منذ عام 2003. حيث أدى ضعف الأداء الاقتصادي والكوارث الطبيعية إلى انخفاض الإنفاق العسكري على الرغم من التحديات الأمنية المستمرة.[36] وللإشارة، بلغ الإنفاق العسكري لدول شمال أفريقيا مجتمعة 5.82 مليار دولار في عام 2023. بزيادة قدرها 38 في المئة عن عام 2202 (19,1 مليار دولار)،[37] و41 في المئة عن عام 2014. والملاحظ أن حيازة الدول الإفريقية لأسلحة تتمّ عبر مورّدين أجانب، وتكون مدفوعة بالصراعات المسلحة والتوترات السياسية الفعلية والمحتملة. وهناك مؤشرات قوية على أن التوترات تتزايد في الكثير من المناطق، وأبرزها في أوروبا بعد الغزو الروسي لأوكرانيا، وحتى في الشرق الأوسط وأفريقيا بعد أن عززت الحرب في قطاع غزة الهواجس الأمنية والخوف من احتمالية اتساع دائرة الصراع. ويبدو من المحتمل جدًا أن يكون هناك المزيد من الطلب على الأسلحة الرئيسية في السنوات المقبلة، والتي سيتم تلبية جزء كبير منها من خلال التحويلات الدولية. ويمثل إنفاق الجزائر والمغرب معظم الإنفاق العسكري في بلدان شمال أفريقيا كما سيتبين من خلال تتبُّع نسبة هذا الإنفاق في الفقرات الموالية.

نسبة الإنفاق الحكومي على التسلح

تُظهر الأدبيات المتخصصة في الاقتصاد السياسي للدفاع أن بنية الموازنات العامة تجسّد ترتيب أولويات الدولة بين مقتضيات الأمن القومي وضرورات التنمية الاقتصادية والاجتماعية. وقد أشار عدد من الباحثين إلى أن تخصيص الموارد العمومية (خصوصًا في الدول التي لا تزال في طور بناء قاعدة إنتاجية صلبة) يعكس توترًا بنيويًا بين السعي إلى تعزيز القدرات العسكرية

35 تستحوذ الولايات المتحدة على نصيب الأسد من حيث قيمة الإنفاق العسكري، حيث بلغ 36% من إجمالي ما ينفقه العالم على سباق التسلح، تليها الصين بحصة 21%، ثم روسيا 4.5%، والهند 3.4 %.

36 سيبري، 9.

37 تيتي إيرستو، «خطة العمل الشاملة المشتركة بشأن البرنامج النووي الإيراني» (الفصل الرابع)، الكتاب السنوي لمعهد ستوكهولم لأبحاث السلام (سيبري) التسلح ونزع السلاح والأمن الدولي 2023 (مركز دراسات الوحدة العربية، 2024)، 235.

وبين الحاجة إلى دعم القطاعات المنتجة وتطوير الرأسمال البشري.[38] ومن هذا المنظور، يصبح تحليل توزيع الإنفاق الحكومي، بما فيه الإنفاق الدفاعي، مدخلًا ضروريًا لفهم الخيارات الاستراتيجية للدول وآليات إدارتها لمعادلة الأمن والتنمية ضمن بيئة إقليمية مطبوعة بتصاعد التنافس الجيوسياسي وعدم اليقين، وهو ما يتجلى بوضوح في منطقة المغرب الكبير.[39]

وتبرز أهمية النظر في ميزانية الدولة باعتبارها الآلية التي تمكّن الحكومة، التي تم اختيارها عبر الانتخابات التشريعية، من تنفيذ برنامجها الاقتصادي والاجتماعي والبيئي. فهي الأداة التي يتم من خلالها تحصيل موارد الدولة وتنفيذ النفقات العمومية برسم كل سنة مالية توافق السنة المدنية. ويتم تنفيذ هذه الميزانية في المغرب والجزائر على أساس وثيقة قانونية هي قانون المالية،[40] الذي يجسد الترخيص الذي يمنحه البرلمان للحكومة من أجل تنزيل السياسات العمومية، وفق تقديرات مرقمة للموارد والنفقات، بما فيها تلك المخصصة للقطاع الدفاعي.

ومراعاة لكون نسبة الإنفاق العسكري تُقاس أساسًا داخل إطار الميزانية العامة، يجدر التوقف عند حجم هذه الميزانيات في البلدين. ففي المغرب، يُظهر قانون المالية لعام 2024 أن مجموع النفقات العمومية بلغ638 مليار درهم (نحو62 مليار دولار) بزيادة 6.3 % عن سنة 2023. أما الجزائر فقد اعتمدت ميزانية عامة تناهز 113 مليار دولار في السنة نفسها، بارتفاع ملحوظ عن ميزانية 2023 (98.5 مليار دولار) وعن ميزانيتي 2022 (74 مليار دولار) و2021 (62 مليار دولار).[41] ويتيح هذا المعطى الأساسَ الضروري لفهم الوزن النسبي للإنفاق الدفاعي داخل الميزانية العامة، باعتباره المؤشر المقارن الأهم في قياس أولوية الدفاع لدى صانعي القرار في البلدين.

في الجانب المغربي، بلغت ميزانية الدفاع 124 مليار درهم (حوالي 12 مليار دولار) وفق قانون المالية لعام 2024، خُصّصت لاقتناء وإصلاح معدات القوات المسلحة الملكية وتطوير الصناعة الدفاعية، بزيادة تفوق 4 مليارات درهم مقارنة بالسنة السابقة. وتنص المادة 37 من قانون المالية، في الحساب المخصّص لـ«اقتناء وإصلاح معدات القوات المسلحة الملكية ودعم تطوير صناعة الدفاع»، على ما يلي: «يُحدّد بمائة وأربعة وعشرين مليارًا وسبعمائة وستة وستين مليون درهم مبلغ النفقات المأذون بها للوزير المنتدب لدى رئيس الحكومة المكلف بإدارة الدفاع الوطني الالتزام به مقدّمًا خلال السنة المالية 2024.»[42] ويُستفاد من ذلك أن الميزانية

38 يراجع في هذا الإطار.

Kennedy, *The Rise and Fall*, 275-295. Gilpin, *War and Change* 81-91.

39 للاستزادة، يراجع:

Keith Hartley and Todd Sandler, "Economics of Defence Policy," in *Handbook of Defense Economics*, vol. 1 (Elsevier, 1995). International Institute for Strategic Studies (IISS), 2 SIPRI, p. 145.

40 يمكن الرجوع إلى: قانون المالية رقم 55.23 للسنة المالية 2024، الجريدة الرسمية للمملكة المغربية، عدد 7259 (25 دجنبر/ كانون الاول 2023) .قانون المالية لسنة 2024، الجريدة الرسمية للجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية، عدد 86 (31 دجنبر/ كانون الأول 2023).

41 International Monetary Fund (IMF), Algeria: Country Report 2023 (2023), 15-22.

42 قانون المالية المغربي، 11426.

الفعلية للقوات المسلحة الملكية تتجاوز 17 مليار دولار مقارنة بمالية سنة 2022، نظرًا لطبيعة التزامات الأداء المتعددة السنوات، علمًا بأن نسبة الإنفاق العسكري من الميزانية العامة قد بلغت 12.1% في سنة 2022. أما الجزائر فقد رصدت 2.926 تريليون دينار جزائري (حوالي 21.6 مليار دولار) لوزارة الدفاع الوطني، أي ما يفوق تسعة مليارات دولار مقارنة بميزانية الدفاع المغربية. وتوزعت هذه المخصصات إلى 3.5 مليارات دولار للدفاع الوطني، و5.6 مليارات دولار للدعم اللوجستي، و12.5 مليار دولار للإدارة العامة.[43] وبهذا تظل موازنة وزارة الدفاع الوطني في صدارة بنود الميزانية العامة الجزائرية، التي بلغت 112.8 مليار دولار، أي 19.2 % من مجموع الإنفاق الحكومي. وتبرهن تطورات العقدين الأخيرين على مسار تصاعدي للإنفاق العسكري الجزائري، إذ بلغت ذروتها عام 2015 (13 مليار دولار)، ثم انخفضت عامي 2018-2019 إلى أقل من 10 مليارات دولار، قبل أن تتضاعف موازنة الجيش 11 مرة مقارنة بعام 2008.

وفي هذا السياق، يُظهر التقرير السنوي لمعهد ستوكهولم الدولي لأبحاث السلام (SIPRI) أن الجزائر والمغرب يحتلان موقعًا رياديًا في مستوى الإنفاق العسكري داخل أفريقيا. فقد أنفق المغرب عام 2023 حوالي 5.2 مليارات دولار، مسجّلًا تراجعًا بنسبة 2.5% مقارنة بسنة 2022، ويُفسَّر هذا الانخفاض بالتوجه نحو تنويع مصادر التسلح وتوطين الصناعة الدفاعية بهدف تقليص كلفة الاستيراد وتعزيز الاستقلالية الاستراتيجية. أمّا الجزائر، فقد بلغ إنفاقها العسكري في السنة نفسها نحو 3.81 مليار دولار، مسجّلًا زيادة قدرها 67% مقارنة بعام 2202، لتصبح ثالث أكبر دولة من حيث الإنفاق العسكري في منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا.[44] وقد وصل مجموع إنفاق البلدين إلى حوالي 13 مليار دولار عام 2023، مقابل 23.5 مليار دولار في 2022، وهو ما يفسّر جزئيًا الارتفاع الملحوظ في الإنفاق العسكري على مستوى القارة الأفريقية، ولا سيما بفعل الزيادة الكبيرة في عائدات الغاز والنفط الجزائرية.[45]

وللبرهنة على كلفة التسابق نحو التسلح (13.3% في الجزائر و12.1% في المغرب من الميزانية العامة عام 2022)، يكفي الرجوع إلى معطيات الشكل (1) التي تبيّن النسبة المئوية من الإنفاق الحكومي المخصّص لحاجيات الدفاع في البلدين، باعتبارها أحد أكثر المؤشرات استعمالًا في الأدبيات المقارنة، لأنها تعكس بصورة مباشرة تفضيلات صانعي القرار وترتيبهم لأولويات الإنفاق العمومي. غير أن هذا المؤشر، على أهميته، يظل محفوفًا بجملة من الحدود المنهجية، إذ لا يعكس بصورة دقيقة الحجم الفعلي للاعتمادات المالية المخصّصة للقطاع العسكري. فمن الثابت أن الإنفاق العسكري الرسمي لا يمثّل دائمًا مجموع الموارد التي تخصّصها الدول، ومن بينها دول المغرب الكبير، لقطاع الدفاع، إذ تتلقى بعضها مساعدات عسكرية مباشرة أو قروضًا مشروطة لا تُدرج عادة ضمن الميزانية الحكومية المعلنة، الأمر الذي يجعل الأرقام الرسمية تقلّل من التقدير الحقيقي لكلفة التسلح.[46]

43 قانون المالية الجزائري، 46.

44 Stockholm International Peace Research Institute (SIPRI), SIPRI Database 2024 (2024).

45 International Monetary Fund (IMF), Algeria: Macroeconomic Developments 2023 (IMF, 2023), 12-18.

46 للاستزادة، يراجع: عبد الرزاق الفارس، السلاح والخبز. الإنفاق العسكري في الوطن العربي 0791-0991. دراسة في الاقتصاد السياسي، ط 1 (مركز دراسات الوحدة العربية، 1993)، بتصرف، 98.

الشكل 1 : مقارنة بين الإنفاق العسكري في المغرب والجزائر (% من إنفاق الحكومة المركزية)[47]

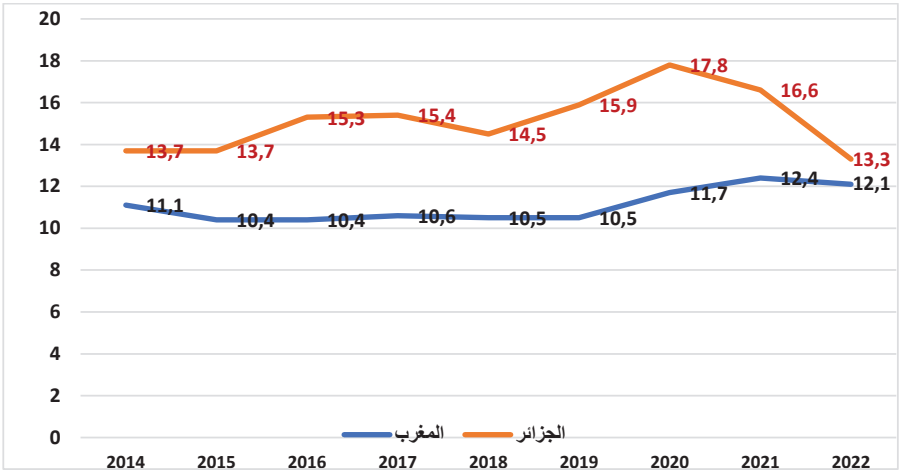

نسبة الإنفاق العسكري ضمن الناتج الداخلي الخام

لم تتوصل بعد مختلف حقول المعرفة الاجتماعية الاقتصادية، وكذلك المهتمة بالعلاقات المدنية/العسكرية لقياس كميّ يحدد نسبة الإنفاق العسكري ضمن الناتج الداخلي الخام (GDP)،[48] إلا أنهم في مقابل ذلك، صاغوا بعض التوصيات العامة التي ينبغي أن تؤطر هذا الإنفاق.[49]

47 إعداد الباحث بالاستناد إلى قاعدة بيانات البنك الدولي، 02.05.2024، https://m-r.pw/DFdZ

48 الناتج المحلي الإجمالي (الناتج الداخلي الخام) هو مؤشّر اقتصادي يقيس القيمة النقدية لإجمالي السلع والخدمات المنتَجة داخل حدود منطقة جغرافية معيّنة خلال فترة زمنية محدّدة، ويُشار إليه اختصارا بـ Gross DomesticProduct (GDP).

49 محمد العوفي، «الأمن مقابل التنمية في الدول المغاربية: دراسة لنموذجي المغرب والجزائر»، رواق عربي، ع 28 (2023)، 26.

الشكل 2: الناتج المحلي الإجمالي للدول المغاربية (القيمة بالدولار)[50]

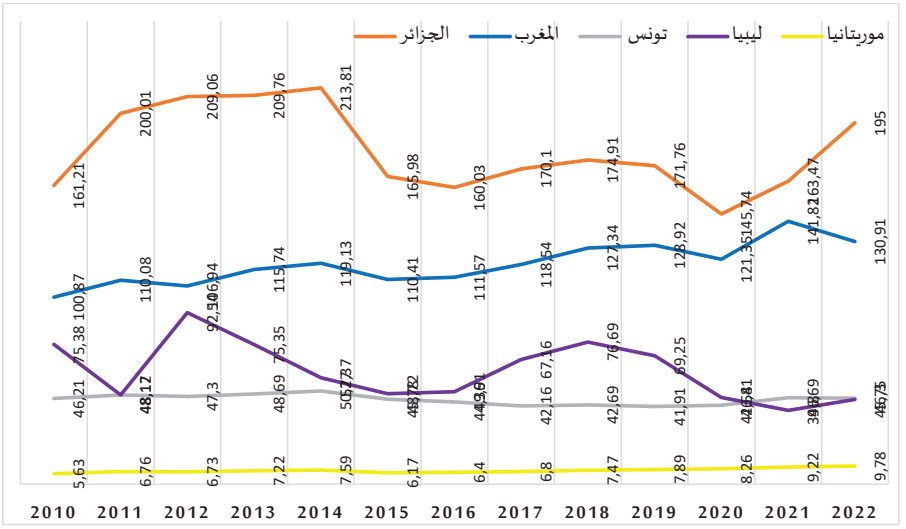

أوصى الاقتصاديون، من جهة، بضرورة خضوع الإنفاق العسكري لمبدأ وجوب التناسب بينه وبين الإمكانيات المالية والاقتصادية للدولة،[51] بينما ينبّه المختصون بدراسة العلاقات المدنية-العسكرية، من جهة ثانية، إلى ضرورة إعمال معيارين لتقدير تكلفة الإنفاق العسكري: يتعلق الأول بضرورة تناسب التكلفة المالية للإنفاق مع حجم التهديدات أو الاعتداءات المحدثة أو المحتملة ضد الدولة.[52] فيما يرتبط المعيار الثاني بالإشراف التنفيذي والتشريعي للنخب المدنية المنتخبة على الإنفاق العسكري من مرحلة الإعداد إلى مرحلة التنفيذ للتأكد من إنفاق الجيش هذه المخصصات على النحو المقرر له مسبقًا،[53] كي لا يستنزف الجيش أموالًا وممتلكات عمومية خُصصت لمواجهة الأخطار الأمنية الخارجية، بينما كان من الأولى استثمارها في تحسين وتطوير خدمات التنمية البشرية والاجتماعية. تفاعلًا مع هذا الوضع، كان من اللازم الاسترشاد بمؤشر متوسط الإنفاق العسكري العالمي لتقييم حدة الإنفاق العسكري في كل من المغرب والجزائر؛ وهو ما يكشفه الشكل (3) الخاص بمقارنة حجم الإنفاق العسكري بين كل من المغرب والجزائر والمتوسط العالمي للإنفاق العسكري.

50 إعداد الباحث بالاستناد إلى قاعدة بيانات البنك الدولي، 02.05.2024، https://m-r.pw/DFdZ

51 جاك فونتنيل، النفقات العسكرية والحد من التسلح (بوبرليشك، 1995)، 56.

52 صامويل هنتغتون، الجندي والدولة: نظرية وسياسات العلاقات المدنية-العسكرية (مطبوعات جامعة هارفرد، 1957).

53 زولتان باراني، الجندي والدولة المتغيرة: بناء جيوش ديمقراطية في أفريقيا وآسيا وأوروبا والأميركتين (المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2018)، 59.

الشكل 3 :مقارنة الإنفاق العسكري بين المغرب والجزائر والمتوسط العالمي للإنفاق العسكري كنسبة من الناتج المحلي الإجمالي ما بين 2010 و2023.[54]

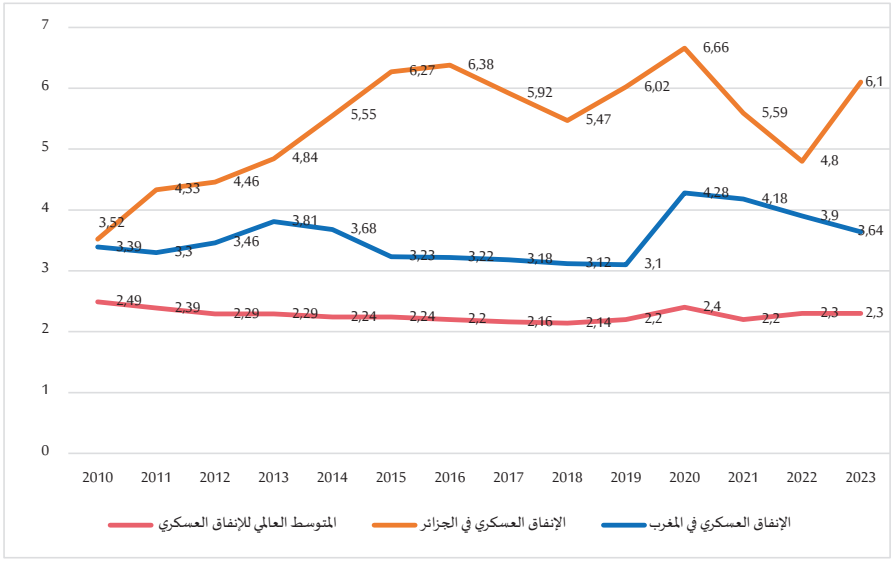

وباستحضار معطيات الرسم البياني أعلاه، لن نضيف جديدًا إذا أشرنا إلى أن الجزائر تُصنّف بين أكثر دول العالم إنفاقًا على السياسة العسكرية، فقد احتلت المرتبة 25 سنة 2018 على المستوى العالمي، والأولى أفريقيًّا، في ترتيب معهد ستوكهولم لأبحاث السلام الدولي للدول، بحجم إنفاق عسكري قُدّر بحوالي 9.6 مليار دولار أمريكي.[55] وفي 2019، ارتفع تصنيفها إلى المرتبة 32 ضمن التصنيف نفسه، بحجم إنفاق عسكري تجاوز 10.33 مليار دولار أمريكي، معززة بذلك صدارتها للدول الأفريقية في هذا المجال، ومتقدمة على دول أوروبية مثل النرويج (المرتبة 30)، والسويد (المرتبة 33)، وسويسرا (المرتبة 37). علمًا بأن الدول الأوروبية الثلاث لا يتعدّى إنفاقها العسكري ضمن مجموع إنفاقها الحكومي 3.5%، بينما بلغ في الجزائر حوالي 17.39% في عام 2020، مصنفة كواحدة من أعلى معدلات الإنفاق الحكومي على الشأن العسكري على الصعيد العالمي.

وللإشارة، رتّب التقرير العالمي لعام 2023 المغرب في المرتبة التاسعة والعشرين بين أكبر أربعين مستوردًا للأسلحة في العالم، مشيرًا إلى أنه حافظ على نفس المركز الذي كان عليه في العام السابق. وتواصل الولايات المتحدة الحفاظ على مكانتها كأكبر مصدر للأسلحة إلى المغرب بنسبة 69 %، تليها فرنسا بنسبة 41 %، ثم إسرائيل بنسبة 11 %. أما الجزائر فتحتل المرتبة 21 مقارنة

54 المصدر: إعداد الباحث بالاستناد إلى قاعدة بيانات البنك الدولي، 02.05.2024، https://m-r.pw/DFdZ

55 Sipri, "Trends in World Military Expenditure, 2021," April 2022, https://www.sipri.org/sites/default/files/2022-04/fs_2204_milex_2021_0.pdf.

بمرتبتها السابقة البالغة 18 في تقرير العام الماضي. وتحتفظ روسيا بمكانتها الأولى كأكبر مصدر للأسلحة إلى الجزائر بنسبة 48 %، تليها ألمانيا بنسبة 15 %، فالصين بنسبة 14 %. وتابع المعهد أن الإنفاق العسكري في أفريقيا بلغ 51.6 مليار دولار، في عام 2023؛ وهو ما يمثل زيادة بنسبة 22 % مقارنة بعام 2022. وما يكشف جزءًا من لعبة المصالح المعقدة وطبيعة العلاقات مع الحلفاء التقليديين (علاقة الجزائر مع روسيا من باب التمثيل) أن الزيادة الكبيرة التي أدرجتها الجزائر في ميزانية الدفاع هذه السنة أعقبت تجدُّد حملة داخل الكونغرس الأمريكي تقودها السيناتورة الأمريكية ليزا ماكلين (Lisa McClain) لدفع وزير الخارجية الأمريكي إلى «البدء فورًا في تنفيذ عقوبات كبيرة على أولئك الموجودين في الحكومة الجزائرية المتورطين في شراء الأسلحة الروسية»، لأن «الولايات المتحدة تحتاج إلى إرسال رسالة واضحة إلى العالم مفادها أنه لن يتم التسامح مع دعم فلاديمير بوتين Vladimir Poutine» كما جاء في رسالتها المنشورة على موقعها الخاص. ويتطابق مضمونها مع أخرى وجّهها أيضًا السيناتور الجمهوري، ونائب رئيس لجنة الاستخبارات في مجلس الشيوخ الأمريكي، ماركو روبيو(Marco Rubio) إلى وزير الخارجية، يدعوه فيها إلى فرض عقوبات على الجزائر.[56]

وبالرجوع إلى الشكل (3)، ما يلفت الانتباه أنه في الوقت الذي تراجع فيه نسبيًا المتوسط العالمي للإنفاق العسكري ما بين 2019 و2021 بسبب تبعات جائحة كوفيد 19، ما دفعها إلى انتهاج سياسات إنفاق أكثر ترشيدًا، تعكس الإحصائيات أن الجزائر حرصت على الزيادة في إنفاقها العسكري المرتفع أصلًا، متجاوزة متوسط السنوات الثلاثة (2,26 %) بأكثر من 3,9 نقطة مئوية على الرغم من تأثير جائحة فيروس كورونا المستجد،[57] على نحو حاد، في الاقتصاد الجزائري، وخاصة في عائدات الضرائب من تصدير المحروقات، ونسبة نموّ الناتج المحلي الإجمالي (وكانت الجزائر تخسر نحو 21,2 % من عائداتها النفطية كلما توقفت أسعار النفط عند حدود 30 دولارًا للبرميل (ينظر الشكل أسفله). وتنسحب ملاحظة الارتفاع نفسها على المغرب، إذ على الرغم من صعوبة الظرفية الاقتصادية ذاتها، وتأثر اقتصاده بفترات الحجر الصحي، يبدو أنه، تبعًا للفترة الزمنية عينها، لم يُقْدم على ترشيد ميزانيته العسكرية (3,18 %) وإن كان معدل الإنفاق العسكري فيه منخفضًا بالنصف تقريبًا بالمقارنة مع نظيره الجزائري الذي عانى حينها من تحدّ مزدوج: تقلبات أسعار النفط والغاز في السوق العالمية،[58] وحالة تجدّد الحراك الشعبي الذي شهدته البلاد بعد ترشُّح الرئيس السابق عبد العزيز بوتفليقة لعهدة خامسة، لكن سرعان ما استقال في الثاني من نيسان/ أبريل 2019، لتُنظَّم انتخابات رئاسية فاز فيها الرئيس الجزائري الحالي عبد المجيد تبون. فقد تأثر قطاع واسع من النشاطات الاقتصادية من وضع الركود، نظرًا إلى حالة الشك والريبة التي سادت الأجواء أكثر من عام؛ إذ توقع

56 «ماذا وراء الحملة داخل الكونغرس الأمريكي لفرض عقوبات على الجزائر؟» القدس العربي، 10.04.2024، https://2u.pw/wSORppzu.

57 تزامن تفشي جائحة فيروس كورونا المستجد مع أزمة انهيار أسعار النفط الحادة التي كانت لا تزال مستمرة منذ سنة 2014 .

58 البنك الدولي (منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا)، تقرير رصد الوضع الاقتصادي (ملخص واف)، «تعزيز الصمود في الوقت الملائم» (مجموعة البنك الدولي، 2022)، 1.

صندوق النقد الدولي[59] أن ينكمش الاقتصاد الجزائري بنحو - 2.5 % ليعاود النموّ من جديد عام 2021 بنحو 6 % بعد حالة التعافي الاقتصادي النسبي، وكذا التحسن في أسعار النفط بحسب تقديراته.[60]

يتبيّن أن حجم الإنفاق العسكري (العبء العسكري) ضمن الناتج الداخلي الخام (GDP) ، في كل من المغرب والجزائر على مدار الفترة بين 2010 و2023 مرتفع للغاية، إذ ظل معدل إنفاقهما على امتداد أربعة عشر سنة يتجاوز المتوسط العالمي للإنفاق العسكري (2,26 %)، بحيث بلغ متوسط الإنفاق في المغرب في هذه الفترة 3,53 %، بينما تجاوزت الجزائر الضعف ببلوغه 5,42 %. وعليه، فبالمقارنة مع المتوسط العالمي للإنفاق العسكري، يلاحظ أن الجزائر ضاعفت هذا المتوسط خمس مرات (سنوات 2013 و2014 و2017 و2018 و2021)، واقترب من ثلاثة أضعاف أيضًا خمس مرات (سنوات 2016 و2017 و2019 و2020 و2023) بتجاوزه نسبة 6 % على الرغم من استقرار الإنفاق العسكري على المستوى العالمي في السنتين الأخيرتين (2,3 %)، وارتفاعه بحوالي 0,1 % نقطة سنة 2001. ويتوقع أن ينخفض تدريجيًا في الدول غير المعنية مباشرة بالصراع الغربي/الروسي، لا سيما وأن الحرب الروسية الأكرانية مست بالأمنين الطاقي والغذائي على المستوى الدولي، إلى القدر الذي فرض على الدول ترشيد إنفاقها العمومي وفق خيارات تمنح الأولوية لتأمين الحماية الاجتماعية، وتعزيز الخدمات الصحية والتعليمية، في مقابل ضبط إنفاقها العسكري تماشيًا مع التحول الذي بات يطبع المخاطر الأمنية المحدقة بالأمن القومي للدول، والتي أضحت داخلية لارتباطها بالديناميات الاحتجاجية نتيجة هشاشة الأوضاع المعيشية بسبب انتشار الغلاء، وارتفاع التكاليف الصحية والتعليمية، أكثر منها خارجية مرتبطة بتهديد القوى الخارجية للحدود الإقليمية للدول.[61]

59 IMF, "World Economic and Financial Surveys. Regional Economic Outlook Update," (IMF, 2020), p. 4.

60 محمد حمشي وعبد النور بن عنتر، «حراك 22 فبراير 9102 وانتفاضات الربيع العربي: حدود سردية الاستثناء الجزائري؟» عمران، ع 43 (2023)، 68.

61 العوفي، 29.

الشكل 4 : السعر الفوري لخام برنت الأوروبي (تسليم على ظهر السفينة FOB)[62]

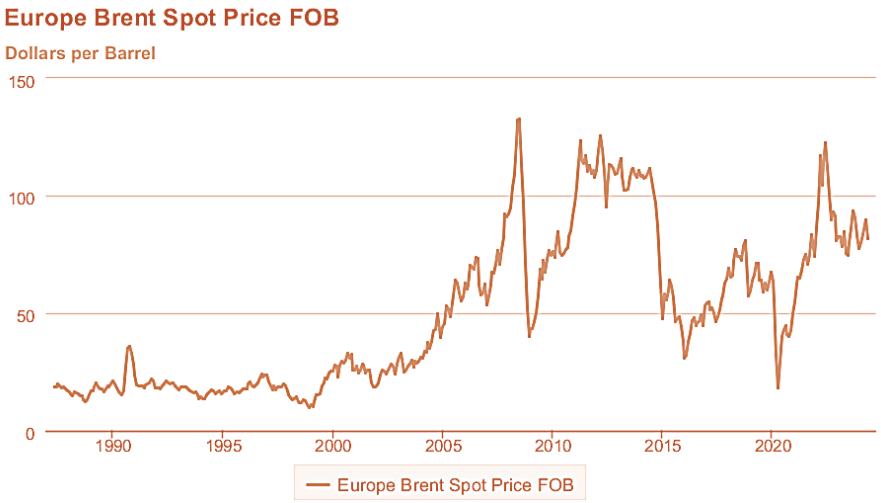

اختلاف التفسيرات بخصوص الإنفاق العسكري

تتباين وجهات نظر المحلّلين بشأن مسألة التسابق نحو التسلّح بين المغرب والجزائر تبعًا لتعدّد الخلفيات المعرفية وتباين المقاربات التفسيرية، وهو تباين يغلب عليه في كثير من الأحيان الطابع الذاتي وما يستبطنه من تمثّلات نفسية وسياسية، إضافة إلى عناصر لا عقلانية ورمزية وتقنية تتداخل في صياغة الخطاب التحليلي، بما يذكّر بما وصفه إرنست كاسيرر (Ernst Cassirer) ببُنى الفهم المتشابكة التي يتقاطع فيها الرمزي بالخيالي والمعرفي بالسياسي.[63] ومن هذا المنطلق، تصبح قراءة دوافع التسلّح ومآلاته رهينة بمقاربات متعددة المستويات، يتفاوت فيها الوزن النسبي للبراديغمات النظرية ولتمثّلات الفاعلين.

ويُفسح هذا الواقع المجال أمام صيغ موازية للتفسير تعتمدها المراكز والمعاهد البحثية الدولية، التي -على الرغم من كونها ليست بمنأى عن أشكال مختلفة من التحيّز، الظاهر منها أو المستتر- تمتلك في الغالب قاعدة بيانات أوسع ومعطيات لا تكون متاحة محليًا. ويعود ذلك، على وجه الخصوص، إلى وجود استثناءات قانونية تنظّم حق الولوج إلى المعلومات المرتبطة بالدفاع والأمن في كلّ من المغرب والجزائر. ففي السياق المغربي، تُقيَّد المعطيات المتصلة بالدفاع الوطني والأمن الداخلي والخارجي بمقتضى التشريع المنظّم للحق في الحصول على المعلومات،[64] إذ

62 "السعر الفوري لخام برنت الأوروبي (Europe Brent Spot Price FOB)"، إدارة معلومات الطاقة الأميركية (U.S. Energy Information Administration)، 50.70.4202، https://m-r.pw/Jrrw.

63 Ernst Cassirer, *The Myth of the State* (Felix Meiner Verlag, 2008), 277.

64 في الظهير الشريف المغربي رقم 15-18-1 الصادر في 5 جمادى الآخرة 1439 (22 فبراير/ شباط 2018) بتنفيذ القانون رقم 13-31 المتعلق

تُستثنى من النشر بحكم حساسيتها الاستراتيجية. وفي الجزائر، يُكرّس الأمر الرئاسي رقم 21-09 المؤرخ في 27 شوّال 1442 (8 يونيو/ حزيران 2021) المتعلق بحماية المعلومات والوثائق الإدارية، نظامًا صارمًا لتصنيف الوثائق حسب درجة حساسيتها، حيث تنص المادة السادسة منه على أربعة أصناف، من بينها صنف «سريّ جدًا» الذي يشمل الوثائق التي من شأن إفشائها الإضرار بالأمن الوطني الداخلي أو الخارجي. ويُلزم هذا النظام الإداري الموظفين العموميين، بموجب أحكام الفصل السادس من الأمر الرئاسي، بالسر المهني وعدم إفشاء محتوى أي وثيقة اطلعوا عليها أثناء أو بسبب أداء مهامهم، كما يمدّد هذا المنع لمدة عشر سنوات توقّف وانتهاء العلاقة المهنية.[65] وبذلك، تحاط المعلومات الدفاعية والأمنية في البلدين بطبقات متعدّدة من الحماية القانونية، ما يجعل التحليل المعتمد على المعطيات المحلية محدودًا بالضرورة، ويفسح المجال أمام الروايات التفسيرية التي تعتمد على مصادر دولية تمتلك قدرة أعلى على الرصد والتجميع والمقارنة.

من جهة، يرى محللون جزائريون أن هناك عوامل وخلفيات أخرى تدفع بلدهم إلى ضخ المليارات من الدولارات لتعزيز وتقوية قدراتها العسكرية. أولًا، إن «التهديدات الجديدة المختلفة، البيئية والصحية والإلكترونية والسيبرانية، فرضت على الجيش الجزائري اقتناء معدات ومنظومات متطورة من التسليح، وأنظمة دفاعية قادرة على مواجهة التهديدات الكلاسيكية والتقنية وحتى الصحية، استعدادًا للتصدي لأية تقلبات إقليمية محتملة، وتنفيذ خطط القيادة العسكرية الهادفة إلى تجديد ترسانة الجيش في مختلف فروعه البرية والجوية والبحرية. وقد أبرمت الجزائر، في هذا السياق، سلسلة صفقات للحصول على منظومات دفاعية حديثة، واقتناء طائرات وقطع بحرية متطورة، إضافة إلى توجيه جزء من النفقات العسكرية إلى التكوين ورفع كفاءة الأفراد والوحدات القتالية.[66]

ويضاف إلى هذه العوامل عدم التزام بعض المنتجين بتنفيذ صفقات الأسلحة التي كانت مبرمجة سابقًا، وذلك نتيجة الركود الذي شهدته الصناعات العسكرية إبّان جائحة كورونا[67]، ثم بسبب الحروب المندلعة في عدة مناطق، ولا سيما الحرب الروسية-الأوكرانية، وما خلّفته من تداعيات أمنية وعسكرية وسياسية واقتصادية على المستوى العالمي، خصوصًا في ظل تجدد الصراع بين الغرب والشرق [68] واتساع الطلب الدولي على السلاح.

بالحق في الحصول على المعلومات، وردت في الفقرة الأولى من المادة السابعة استثناءات من الحق في الحصول على المعلومات، إذ جاء فيها : «بهدف حماية المصالح العليا للوطن ، وطبقا لأحكام الفقرة الثانية من الفصل 27 من الدستور ، ومع مراعاة الآجال المحددة في المادتين 16 و17 من القانون رقم 99-69 المتعلق بالأرشيف ، تستثنى من الحق في الحصول على المعلومات، كل المعلومات المتعلقة بالدفاع الوطني وبأمن الدولة الداخلي والخارجي، وتلك المتعلقة بالحياة الخاصة للأفراد أو التي تكتسي طابع معطيات شخصية، والمعلومات التي من شأن الكشف عنها المس بالحريات والحقوق الأساسية المنصوص عليها في الدستور ، وحماية مصادر المعلومات.»

65 المادة 14 من الأمر الرئاسي الجزائري.

66 «الجزائر: ميزانية غير مسبوقة للجيش بواحد وعشرين مليار دولار،» العربي الجديد، 20.04.2024، https://2u.pw/ggxUd9Nc.

67 «الإنفاق العسكري للجزائر.. ماذا وراء الزيادة القياسية؟» الحرة، 19.04.2024، https://2u.pw/33cHI713.

68 «الجزائر: ميزانية غير مسبوقة»، م. س.

ثالثًا، إن ما يجري في المحيط الإقليمي للجزائر من توترات يفرض تحديات أمنية وعسكرية متعددة الأبعاد، ويثقل كاهل الجيش الجزائري في سعيه إلى تأمين حدودها المضطربة. فمن الجنوب، يمثل عدم الاستقرار في منطقة الساحل مصدر تهديد مستمر، نظرًا لانتشار الجماعات المسلحة والهجرة غير النظامية وشبكات التهريب. وعلى الحدود الشرقية، لا تزال ليبيا تعيش مرحلة انتقالية غير محسومة، ما يخلق فراغًا أمنيًا يمتد تأثيره إلى المجال الجيوسياسي الجزائري. أمّا في الجهة الغربية، فقد زادت التوترات حدّة خلال السنة الأخيرة إثر قطع العلاقات مع المملكة المغربية، وهو ما أعاد طرح تساؤلات حول مستقبل العلاقات الثنائية ومسارات التصعيد المحتملة.

وبين هذا وذاك، يبدو ظاهريًا أن الخلاف حول الصحراء هو السبب الرئيس للسباق نحو التسلح، غير أن هذا التفسير لا يكفي وحده لفهم عمق التوتر، والدليل أن العلاقات المغربية-الجزائرية شهدت توترًا واضحًا قبل سنة 1975. وإذا شئنا في مستوى من التبسيط، استحضار مرحلة الاستقطاب الأيديولوجي، فإنه يمكن التذكير بما أورده الملك الراحل الحسن الثاني بخصوص كيفية نظر الرئيس الجزائري الراحل هواري بومدين إلى العلاقات بين البلدين؛ إذ يتذكر بأن نظرة بومدين كانت «واقعية تمامًا». كان يؤكد باستمرار أنه «يريد مغربًا مستقرًا مزدهرًا»، لكنه كان يتفادى إضافة عبارة حاسمة: «شريطة ألا يزاحم الجزائر». ويضيف رحمة الله عليه: «لم أكن أسعى إلى مزاحمة الجزائر. ولكن لم أقبل أن يزاحمني أحد. إنني أريد أن يقوم بيننا تعاون خصوصًا جنوب المغرب والجزائر.»[69]

وبعيدًا عن اختلاف تأويل مفهوم «المزاحمة» بين الجانبين، ومع تنامي مؤشرات العداء -إن لم نقل المبالغة- في تحريف المعطيات بطريقة فجّة أحيانًا، فإنّ هناك من الدلائل ما يكفي للقول بأن الجزائر وجدت، في نهاية المطاف، ما تعتبره فرصة لتفعيل هذه المزاحمة، عبر استثمارها في شبيبة من الصحراء لم يكن الانفصال يومًا ضمن تصورات جزء كبير منهم،[70] كما يروي العديد ممن عادوا منهم إلى المغرب. إذ ليس خافيًا أن الجزائر تأمل في قيام دولة صحراوية مستقلة تتيح لها منفذًا بحريًا على الأطلسي، وتفتح أمامها مجالًا واسعًا لعقود الإعمار ولرخص استغلال الموارد الطبيعية في ذلك الفضاء.[71]

من جهة ثانية، تجمع أغلب التفسيرات المغربية على أن ارتفاع الإنفاق العسكري، حاضرًا ومستقبلًا، في كل من المغرب والجزائر يعود إلى ثلاثة عوامل مترابطة. يتمثل الأول في أنّ المغرب يخوض، منذ ما يقرب من نصف قرن، نزاعًا في إقليم الصحراء بتكاليفه اللوجستية والبشرية الباهظة، وذلك استنادًا إلى اعتبارات تاريخية وسيادية راسخة. فالمسألة بالنسبة للمغرب لا تنحصر في حجم ما يُنفَق على الجيش أو على البنى التحتية أو في الأهمية الجيواستراتيجية

69 عبد الحي، 32.

70 حسن أوريد، «الحرب المشروعة،» مجلة زمان، 01.05.2024، https://2u.pw/ggxUd9Nc.

71 حمشي، «المغرب العربي،» 157.

والاقتصادية للإقليم، بل تتجاوز ذلك إلى قناعة سياسية وقانونية راسخة مفادها أنّ «مغربية الصحراء حقيقة ثابتة، وأمر لا نقاش فيه ولا تفاوض عليه،»[72] وأن منح الإقليم وضعًا قانونيًا خاصًا في إطار الحكم الذاتي هو أقصى ما يمكن تقديمه ضمن مقاربة الحل السياسي.

أما العامل الثاني، فيندرج ضمن بناء استراتيجية دفاعية ردعية متكاملة، قوامها تمكين القوات المسلحة الملكية من تكنولوجيا وأسلحة متطورة، سواء على المستوى الجوي أو البري أو البحري أو الاستخباراتي، وذلك لرفع مستوى اليقظة وتعزيز الجاهزية الدائمة في مواجهة الأخطار غير المتوقعة التي يصعب التنبؤ بحدوثها أو بنتائجها. ويندرج ضمن هذه الرؤية أيضًا السعي إلى تطوير الصناعة الدفاعية الوطنية على المديين المتوسط والبعيد، عبر إحداث مناطق للتسريع الصناعي، وتوقيع اتفاقات شراكة مع فاعلين دوليين، بغرض تقليص التبعية الخارجية وتوسيع هامش القرار السيادي في المجال الدفاعي.

ويتعلق العامل الأخير بالتسابق نحو التسلح بين المغرب والجزائر، وكذلك بينهما وبين إسبانيا، ضمن سياق إقليمي تحكمه اعتبارات توازن القوى في غرب البحر الأبيض المتوسط ومنطقة الساحل، وتداعيات إعادة تشكيل النفوذ الدولي في أفريقيا.[73] ويكتسي هذا العامل أهمية متزايدة بالنظر إلى التحولات الأمنية والسياسية التي شهدتها المنطقة خلال السنوات الأخيرة، ولا سيما بعد عملية الجيش المغربي في الكركرات[74] وما تبعها من مناوشات متكررة على طول الجدار الأمني في الصحراء مع ما يسمى جبهة «البوليساريو،»[75] التي تتلقى دعمًا سياسيًا ولوجستيًا وعسكريًا من الجزائر، سواء عبر التمويل أو التسليح أو التدريب، مما يجعل البيئة الأمنية المحيطة بالمغرب أكثر تعقيدًا، ويعزز الحاجة إلى مواصلة الاستثمار في القدرات الدفاعية.

يبدو جليًّا أنه بقدر ما توجد بعض التباينات في التفسير، هناك قواسم مشتركة بينة من شأنها تحقيق تيسير فهم حيثيات ارتفاع الإنفاق العسكري في سياق منافسة تاريخية ومحورية نزاع إقليمي متجدّد حول الصحراء ظاهريًا على الأقل. كيف ذلك من منظور واقعيّ؟ بداية، يرى والتز (Waltz) أن «سبب التشويش السائد بين دارسي العلاقات الدولية يرجع إلى أنهم يفكرون فيهم بطرائق مختلفة أو متباعدة؛ فالبعض يفكر بأن جذور ما يجري في العلاقات الدولية موجود في الطبيعة البشرية، أو من البشر. ويقول البعض الآخر إن هذه الجذور موجودة في الدول؛ فالدول الشريرة، لا الدول الجيدة، هي التي تخوض الحروب، لأن الأخيرة دول ديمقراطية. لذا، فإن كل شيء متجذر في ماهية طبيعة الدول. ثم إن هناك الطريق الثالث للنظر إلى العلاقات الدولية، وهو المستوى السياسي الدولي، الذي توجد فيه أسباب ما يحدث

72 مقتطف من خطاب الملك محمد السادس بمناسبة الذكرى السادسة والأربعين للمسيرة الخضراء.

73 Michael D. Jacobs, "Hegemonic Rivalry in the Maghreb: Algeria and Morocco in the Western Sahara Conflict" (Master's Thesis, University of South Florida, 2012), 30–36.

74 United Nations, Report of the Secretary-General on Western Sahara, UN Doc. S/2021/843.

75 «التسليح النوعي للقوات المسلحة الملكية في قلب المعادلات الجيوسياسية للمنطقة،» بناصا، 11.05.2024، https://2u.pw/jC-1Cxlxm

في العالم. وبالرغم من أن ما يجري في العلاقات الدولية قائم في المستويين الآخرين، فإن الدول تتفاعل في هذا السياق، والسياق مهم جدًا.»[76]

في السنتين الأخيرتين، انقطع الحبل الرابط بين المغرب والجزائر، وهما الدولتان الأكثر قوة[77] ووزنًا في المنطقة من مختلف النواحي، وبدأ يسود انطباع بأنهما ماضيتان، بدراية أو تجاهل، نحو مصير مجهول. فقد أقدمت الجزائر على سلسلة من القرارات والإجراءات التي أغلقت عمليًا كل السبل أمام لغة الحوار وإمكانيات التقارب وردم الفجوات، في الوقت الذي أخذت فيه تتشكل ممارسات سياسية واستراتيجية ذات طابع تصاعدي تُفاقم حالة عدم الثقة، خصوصًا مع بروز تحالفات ثنائية جديدة على حساب الحسّ المغاربي المشترك، بما يعيد إلى الذاكرة الأسباب العميقة لتعثّر مشروع الاندماج المغاربي منذ ستينيات القرن الماضي. ولا يختلف اثنان في أن هذا النمط من السلوك كان مصدرًا مباشرًا لإخفاق المشروع المغاربي في لحظة التأسيس ذاتها، لا سيما خلال مرحلة «مؤتمرات وزراء الاقتصاد» بين 1964 و1975، حين غلب منطق العلاقات الثنائية الضيقة على فكرة التكامل الإقليمي. وقد وثّق عدد من الباحثين هذه المرحلة باعتبارها فترة أُهدرت فيها فرصة بناء أسس تعاون اقتصادي كانت كفيلة بإحداث تحول تاريخي في مسار المنطقة.[78]

ويرى بعض الباحثين أن التأكيد المتكرر على الدور السلبي للخلاف الحدودي بين الجزائر والمغرب- الممتد لأكثر من نصف قرن- لا ينبغي أن يؤدي بالضرورة إلى تعطيل آليات الاندماج الإقليمي. فحُجتهم الأساسية أن الخلاف، على حدّته، لم يمنع تقدم مشاريع إقليمية كبرى على غرار الشبكة المغاربية للسكك الحديدية والطرق السريعة في فترات سابقة.[79] كما يذهبون إلى أن العلاقة بين البلدين، رغم التوترات المزمنة، لا يمكن وصفها بأنها علاقة عداء مطلق،[80] إذ إن اشتباك 1963 (حرب الرمال) ظل محدودًا، وأن العلاقات الثنائية عرفت مراحل مدّ وجزر تبعًا للتحولات الداخلية والإقليمية. لكن واقع السنوات الأخيرة يحمل مؤشرات مغايرة تمامًا لما كان يُستشهد به في السابق، إذ أصبحت القطيعة مؤسسية وشاملة، وتحوّلت الخلافات من مستوى النزاع السياسي والدبلوماسي إلى مستوى الاستقطاب الاستراتيجي، بما يعيد رسم توازنات الأمن الإقليمي في شمال أفريقيا ويُهدّد ما تبقّى من إمكانيات بناء فضاء مغاربي موحّد.

لربما يأمل أصحاب الحسّ السليم أن تنجح حالة التصدّع الراهنة في التعافي، وأن تُغلّب القيادات السياسية منطق الحكمة والحنكة لتجنّب أيّ اشتباك مسلّح قد يَدفع المنطقة إلى

76 Kenneth Waltz, *Man, The State and War: A Theoretical Analysis* (Columbia UP, 1959) 5-9.

77 سعيد الصديقي، «تداعيات الحرب الروسية - الأوكرانية على النظامَين الدولي والمغاربي،» (المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2023)، 3.

78 Robert Mortimer, "The Maghreb Union: Myth or Reality?" The Journal of Modern African Studies 27, no. 2 (1989).

79 I. William Zartman, "The Arab Maghreb Union: Problems and Prospects." *Arab Studies Quarterly* 16, no. 3 (1994).

80 حمشي، «المغرب العربي،» 156.

مسارات مجهولة يصعب التنبؤ بمآلاتها. غير أنّ الخطاب السياسي الرسمي، وما تروّجه وسائل الإعلام المتماهية معه- ولا سيما في الجانب الجزائري حيث تتخذ النبرة طابعًا تصعيديًا أو عدائيًا واضحًا- يقابله في المغرب خطاب يستبقي، في مستوياته الرسمية، نهج اليد الممدودة والدعوة إلى الحوار. هذا التباين في الخطاب يعكس، في العمق، اختلافًا في مقاربة إدارة الأزمة، ويُنتج بدوره دلالات عداء وتباينات عميقة في التصورات والمصالح، بما لا يساعد دول المنطقة على الاستقواء ببعضها البعض لمواجهة مخاوفها الأمنية وتحدياتها الاقتصادية والاجتماعية المشتركة.

وتُعد تونس حالة لافتة في هذا السياق؛ فعلى الرغم من أنها تتشارك مع الجزائر حدودًا واسعة ذات حساسية أمنية عالية، وكانت تتبنّى تقليديًا سياسة حياد إيجابي (وإن كان قلقًا) إزاء الخلاف الجزائري-المغربي حول مسألة الصحراء،[81] فإنّ جملة من الوقائع السياسية الأخيرة تظهر أنّ هذا الحياد تحوّل تدريجيًا إلى حياد سلبي.[82] ولعلّ أبرز مؤشر على ذلك استمرار سحب المملكة المغربية لسفيرها من تونس لأكثر من ثلاث سنوات، دون بوادر لعودة العلاقات إلى طبيعتها، وذلك عقب الاستقبال الرسمي الذي خصّ به الرئيس التونسي قيس سعيّد زعيم ما يسمى جبهة «البوليساريو» للمشاركة في أشغال ندوة طوكيو للتنمية في أفريقيا (تيكاد 8)، التي احتضنتها العاصمة التونسية يومي 27 و28 أغسطس/ آب 2022، وهو استقبال اعتبرته الرباط مساسًا بمبدأ الحياد ودعمًا ضمنيًا لأطروحة مناوئة لها.

ويتوافق هذا التعارض في التوجهات والمواقف داخل المنطقة مع ما تبرزه النظرية الواقعية في العلاقات الدولية، التي ترى أنّ الدول، وخاصة غير الكبرى منها، سلكت نهجًا عقلانيًا ونفعيًا داخل بنية إقليمية ودولية تتسم بالفوضى وانعدام اليقين. ومن هذا المنظور، يذهب جوزيف غريكو (Joseph Grieco) إلى أنّ الدول، في سياق كهذا، تركّز على تعظيم أمنها النسبي وتفادي الخسارة أمام المنافسين، أكثر مما تركّز على التعاون، بما يعزّز من فرص التوتر ويقلّص من إمكانيات الاندماج والتقارب.[83] ويفترض أن تدرك الدول أنها تتفاعل مع الأحداث في ظل سياق دولي مضطرب يتسم بالرغبة في لعب دور معين في بنية هذا النظام والحيلولة دون فقدان الاستقلال والسيادة. وبالرجوع إلى مجمل الأحداث، لن يجد الباحث كبير عناء في إثبات تأثير مشكل الصحراء على العلاقات بين بلدان المنطقة وعلى أيّ مبادرة وحدوية وإن كانت معطيات كثيرة محاطة بالتكتم والسرية من الجانبين، تنعكس على مدى قوة مقروئية القرار العمومي الخاص بهذا الجانب السيادي شديد الارتباط بالأمن القومي من ناحية، والمتعلق بصفقات واتفاقات غير معلنة من ناحية ثانية. وهنا لا بُدَّ أن نلفت الانتباه إلى أن البحث في القضايا الأمنية والعسكرية (والدفاعية عامة) وكيفية تدبيرها وتمويلها في البلدين ما يزال يكتنفها

81 حمشي، «المغرب العربي،» 156.

82 الحبيب استاتي زين الدين، «الدور الفرنسي في المغرب الكبير: قراءة من منظور واقعي،» مجلة دراسات الشرق الأوسط، ع 16 (2024)، 88.

83 Joseph Grieco, "State Interests and Institutional Rule Trajectories: A Neorealist Interpretation of the Maastricht Treaty and European Economic and Monetary Union", *Security Studies* 5, no. 3 (1996), 266.

غموض كبير، يعزى إلى صعوبة الحصول على المعلومات الكافية والضرورية في هذا الشأن، وكذلك الحذر الشديد الذي تتوخاه تقديرات وتحليلات المسؤولين الأمنيين والعسكريين، فضلًا عن كون إفشاء السر المهني يعد جريمة يعاقب عليه الموظف المعني طبقًا للقوانين الجاري بها العمل في البلدين كما رأينا سابقًا، وذلك ما لم يوصف الفعل بوصف أشد.

وهذا التشديد الذي يقوي استراتيجية الكتمان والسرية لم يعد يعني الموظفين الإداريين فحسب، وإنما تشهد أسانيد كثيرة أنه أصبح يميز حتى ردود فعل الطبقة السياسية، وهو ما يطرح سؤال تداول المعلومة بالنسبة للباحث، لأن النتيجة الحتمية لهذا الانغلاق أن مختلف القراءات التي تهتم بالإنفاق الأمني والعسكري في المغرب والجزائر ظلت تنظر إلى حيثياته وطريقة تدبيره لها «من الخارج»، مادام أن إمكانيات الاقتراب من هذا القرار السيادي «من الداخل» شبه منعدمة إن لم نقل مستحيلة. وأقصى ما يمكن أن يقوم به الباحث العربي في العلوم السياسية والعلاقات الدولية هو الانطلاق من الظاهر أو العام (الأرقام التي تقدمها الميزانيات العامة أو المؤسسات والمعاهد الدولية دون تفصيلات) لفهم الخاص أو المسكوت عنه. قد يسأل سائل: ألا يضع البلدان في متناول الجميع قوانين مالية تحدد بالتدقيق نفقات وموارد الميزانية العامة؟ وما الضرر في عدم التفصيل والسرية عملة رائجة في مجال الإنفاق العسكري؟

أعترف أن السؤال وجيه، بيد أن عملية التحقق من أن صاحبه جادّ غير مراوغ ينبغي أن تسبق أيّ محاولة لسبر أغواره، وحينها فقط سيظهر أن الحصول على المعلومة أحد المداخل الممكنة لربط المسؤولية بالمحاسبة وتكريس الخيار الديمقراطي. لماذا أقول ذلك؟ لأن الديمقراطية ليست مجرد مسطرة انتخابية من السهل التلاعب بها، إنها تمثل قيمًا أخلاقية معلومة وسلوكًا معيّنًا وتتطلب لكي تؤتي أكلها مزاجًا جماعيًا خاصًا[84] يدرك، مثلًا، أهمية ربط أعمال الأجهزة الأمنية والمدنية والعسكرية بإطار قانوني يقوم على مبدأي المسؤولية والمحاسبة. وفوضت الكثير من التجارب الديمقراطية، في هذا الجانب، البرلمان سلطات واسعة في مجال التتبع والمساءلة، لمنع السلطات السياسية من إساءة استخدام وتدبير أجهزة الأمن والدفاع، والحيلولة دون عزل هذه الأجهزة عن الحكم التنفيذي.[85]

دستوريًا، يمارس البرلمان السلطة التشريعية. يصوت فيه ممثلو الأمة المنتخبون على القوانين، ويراقبون عمل الحكومة، ويقيّمون السياسات العمومية. لكن واقعيًّا يبدو أن هذه المؤسسة لا تولد فقط مقيدة بحدود العقلنة البرلمانية المكرسة في الوثيقة الدستورية، أو تتأثر ببعض الممارسات التي تشوب العملية الانتخابية وحيادها، بل يكمن ضعفها أيضًا في طبيعة الأحزاب المسؤولة دستوريًا عن تأطير المواطنين وانتقاء من يشكل النخبة البرلمانية. وعلى الرغم من بعض الاختلافات بين الأنظمة السياسية المغاربية، فالحصيلة البرلمانية تكشف، عمومًا، وجود معيقات واقعة ومتوقعة تحول دون قيام الأحزاب بالأدوار والوظائف المنوطة بها على مستوى الرقابة والتقييم وتدبير صراع المصالح أو القدرة على الأقل على المناقشة بعيدًا عن خطاب

84 عبد الله العروي، مجمل تاريخ المغرب، ط 2 (المركز الثقافي العربي، 2009)، 648.

85 هانز بورن وإيان لي، إخضاع أجهزة المخابرات للمساءلة القانونية: المعايير القانونية والممارسة الأفضل للرقابة على أجهزة المخابرات (مركز جنيف للرقابة الديمقراطية على القوات المسلحة، 2005)، 13.

الإجماع الذي يميز سلوكه (البرلمان) بالتصويت دون أي اعتراض على ميزانية الدفاع الوطني (وإن حدث يكون نادرًا ومحصورًا في حالات محدودة جدًا). لربما يكون البرلمان عرضة للضغط من قبل جهات متعددة دستورية أو قانونية؛[86] فإضافة إلى ضغط الجهاز التنفيذي، فقد يكون موضوع ضغط جماعات المصالح، ووسائل الإعلام أحيانًا، أو أية جهة متنفذة في النسيج الاقتصادي والاجتماعي لها مصلحة في سياسات تشريعية معينة، كما يمكن أن يتعرض بشكل أو بآخر لضغوطات من طرف الأجهزة الأمنية والعسكرية والمخابراتية، وإن كان الجزم هنا غير وارد لعدم وجود دراسات وأبحاث وتحقيقات ميدانية تثبت فرضية هذا الضغط.

في انتظار تمديد الباحثين اهتمامهم إلى أوجه هذا الصراع والضغوطات المسببة له أو المؤثرة فيه على نحو موضوعي، سيكون من باب التفاؤل القول بأن لا شيء يدعو إلى الأمل سوى أن الديمقراطية لم تعد مرفوضة مبدئيًا كما كانت طوال سنوات. لم يعد يستطيع أحد أن يقول، كما كان يفعل الكثيرون قبل سنوات فقط، إنها من كماليات الدول الغنية المترفة أو إنها تؤخر مسيرة النمو أو تعمق الفوارق الاجتماعية.[87] يبقى أن التاريخ ترك جراحًا يصعب محوها باللسان أو الأماني، والضرر الأكبر أن يتمدد الاطمئنان إلى المقاربة الأمنية في تكريس هيبة الدولة وتعزيز أمن المجتمع.

وفي علاقة بهذه المقاربة، يبرز داخل النموذج الواقعي نهجان متنافسان يساعدان على فهم حرص الأنظمة على احتواء المعضلات الأمنية المحفّزة لسلوكها. فوفقًا للواقعيين الدفاعيين، تسهم التحديات الأمنية البنيوية في جعل التعاون بين القوى الكبرى والبلدان المغاربية أمرًا ممكنًا ومطلوبًا، باعتباره آلية للتخفيف من آثار الفوضى وانعدام اليقين في بنية النظام الدولي. وفي المقابل، يرى أنصار الواقعية الهجومية أن المعضلة الأمنية ذاتها تدفع دول المنطقة إلى تعميق التنسيق مع قوى كبرى- وفي مقدمتها فرنسا، العضو الدائم في مجلس الأمن - لأسباب تتعلق بطبيعة العلاقات التاريخية، ولأن هذا التعاون يُعد وسيلة لتعظيم الذات وحماية المصالح الحيوية في ظل صعوبة التعرّف إلى نيات الدول الأخرى.

ويملك الباحثون المغاربيون، في هذا السياق، دلائل كثيرة على وجاهة هذه التحليلات؛ إذ يدرك الكثير منهم أن مفهوم الأمن في المنطقة ما يزال يُقارَب وفق منظور تقليدي يُركّز على المسائل العسكرية والحدودية، بينما تبقى الهواجس الاجتماعية والثقافية والبيئية محصورة في مستوى الخطاب أكثر من حضورها في السياسات العمومية. وفي ضوء ذلك، يجادل الواقعيون بأن القوى الكبرى في النظام الدولي- ومن ضمنها الاتحاد الأوروبي والولايات المتحدة وروسيا والصين-تتحرك وفق منطق تعظيم النفوذ واقتناص الفرص الاستراتيجية، بل والسعي إلى الهيمنة متى سمحت موازين القوى بذلك، وهو ما يجعل تأثيرها في التفاعلات المغاربية أكثر وضوحًا وحدّة.[88]

86 امحمد مالكي، «عن وضع البرلمان في المغرب»، المركز العربي لتطوير حكم القانون والنزاهة، المشروع. «تعزيز حكم القانون والنزاهة في العالم العربي،» 03.05.2024، https://2u.pw/9VLJhxKO

87 العروي، مجمل تاريخ المغرب، 648.

88 John J. Mearsheimer, *The Tragedy of Great Power Politics* (W. W. Norton, 2001), 29-54.

وتُعتبر الحالة الليبية مثالًا صارخًا على هذا المنطق؛ إذ تواجه ليبيا معضلات أمنية متفاقمة ناتجة عن اتساع دائرة الخلاف والصراع بين الأطراف الليبية ذاتها، غير أن تعقيد المشهد يتجاوز الفاعلين المحليين إلى تشابك التدخلات الخارجية. فالجهات التي تذكي الصراع متعددة، واستراتيجياتها متفاوتة، بينما يبدو أن مفاتيح الحل -أو الحد الأدنى من خطوات التسوية- لا تكمن بيد الليبيين وحدهم، ولا حتى لدى جيرانهم المغاربيين المنشغلين بدورهم بتناقضاتهم البينية، بل تصاغ بدرجة كبيرة وفق إرادات القوى الكبرى المتنافسة في ليبيا، وفي مقدمتها فرنسا، والولايات المتحدة، وروسيا، إضافة إلى فاعلين إقليميين آخرين.[89] وهذا التداخل يُجسّد ما تحذر منه المقاربات الواقعية، من أنّ الدول الصغيرة والمتوسطة تصبح غالبًا رهينة تنافس القوى الكبرى في مناطق تتسم بفراغ أو هشاشة مؤسساتية.[90]

يدرك المهتم بتاريخ المنطقة أن هذه الصورة القاتمة، في الأصل، قديمة، التقطتها النخبة الفرنسية بمختلف تلويناتها قبل خروجها من المنطقة، بل وحتى قبل الدخول إليها. ألم يكتب أوجين إتيان (Eugène Etienne) في ديسمبر/ كانون الأول 1898، وتحديدًا في مجلة «القضايا الدبلوماسية والاستعمار، أن «لدى فرنسا في المغرب، حقوقًا وواجبات، وتفوق حقوق أية قوة دولية أخرى... والمصدر الأول لحقوقنا... هو الجزائر. فالجزائر هي التي أدّت بنا إلى تونس، وعليها أن تؤدي بنا، رغم بعض المصاعب بدون شك، إلى المغرب. فاحتلال تونس لم يتم دفعة واحدة، كما قد توحي بذلك بعض المظاهر الخادعة، بل إنه نتيجة جهد طويل من التسلل والاحتواء... وفي المغرب، يفرض تكتيك مماثل نفسه ببطء وحذر كبيرين، نظرًا للمنافسة المثارة ذاتها.»[91] بعد مرور أكثر من مئة وخمس وعشرين سنة، طبيعيّ أن يتغير مقياس العدسة بنسب طفيفة، لكن آلة التصوير تظل هي نفسها، تجعل «كل شيء يتغير لأجل أن يبقى الأمر على ما هو عليه». من نتائج هذه الاستمرارية الإشادة المتواصلة بسردية الاستقرار. ويمكن أن أسوق مثالًا من الجزائر على ما أزعمه. من العبر المستخلصة من حراك 22 فبراير 2019 أن ثمة توافقًا استراتيجيًا بين القوى الكبرى والسلطة القائمة في الجزائر، ويكاد الأمر نفسه يتكرر في المنطقة بصيغ مختلفة نسبيًّا، فحواه أن استقرار الأخيرة ضروري لاستقرار المنطقة برمّتها. وهناك من يحاجّ بأن التوافق الاستراتيجي بات عائقًا أمام التغيير في الجزائر. وعلى الرغم من خطاب السلطة الجزائرية بشأن «الأيادي الأجنبية» المتربصة بأمن البلد واستقراره، فإن القوى الكبرى لا مصلحة لها في زعزعة الاستقرار السائد في الجزائر، وهذا ما يفسّر صمتها وإحجامها عن استخدام خطاب الحريات وحقوق الإنسان والديمقراطية الذي لا تتردد في توظيفه ضد الأنظمة الحاكمة في بلدان أخرى. إنها تثبت المرة تلو الأخرى أن المستلزمات الأمنية إذا تعارضت مع الاعتبارات المعيارية، كانت الغلبة دائمًا للأولى.[92]

89 Wolfram Lacher, Libya's Fragmentation: Structure and Process in Violent Conflict (I.B. Tauris, 2020), 115-148.

90 Federica Saini Fasanotti, *Libya: From Rebellion to Fragmentation* (Brookings Institution, 2019).

91 ألبير عياش، المغرب والاستعمار: حصيلة السيطرة الفرنسية، ترجمة عبد القادر الشاوي ونور الدين سعودي، مراجعة وتقديم: إدريس بنسعيد وعبد الأحد السبتي، سلسلة معرفة الممارسة، ط 1 (دار الخطابي للطباعة والنشر، الرباط، 1985)، 51 وما بعدها.

92 حمشي وبن عنتر، «حراك 22 فبراير،" .67

وأتصور أن الواقعيين يحتفون بهذه الفكرة وهم يطالعون التكلفة المرتفعة للإنفاق العسكري في دول المغرب الكبير التي تضيف إلى مسيرتها الصفرية في التعاون فصلًا جديدًا من الصراع الذي يتخذ أشكالًا عدة، ويبدو أن السلاح مجرد وجه منها. ومن المعلوم أن هذه الدول تتشارك العديد منها الحدود نفسها، كما توجد بينها مجموعة من القواسم الثقافية واللغوية والتاريخية المشتركة.[93] غير أن تدقيق النظر في هذا التقارب يوحي بتنوع وتناقض في آن واحد: ظاهريًّا، الدول التي تنتمي إلى هذه المنطقة متشابهة، غير أن التحولات الجارية، محليًا وإقليميًا، تنقل إلينا أن المشترك لا يمتلك، في الوقت الحاضر، القوة الكافية لتحويله إلى استراتيجية مؤثرة وقابلة للتنفيذ، طالما استمرت العوائق العديدة التي تجثم على نخبها ومجتمعاتها، وتُضعف أرصدة قوتها، وتعمّق انكشافها للخارج من خلال التسابق نحو التسلح.

في مفترق الطرق: الإنفاق العسكري والفرص البديلة

يواجه العالم، في المرحلة الراهنة، تداخلًا غير مسبوق للأزمات العالمية ذات الطبيعة المركّبة، تشمل تغيّر المناخ، وتسارع الضغوط التضخمية، وتنامي بؤر الصراع، وتزايد هشاشة الأمنين الغذائي والطاقي، مع ما يترتب على ذلك من آثار غير متكافئة تتحمّل البلدان النامية العبء الأكبر منها. وقد تفاقمت هذه التحديات بفعل التداعيات البنيوية بعيدة المدى للغزو الروسي لأوكرانيا، واتساع أزمة المديونية في عدد متزايد من الدول، فضلًا عن الآثار الممتدة لجائحة كوفيد-19، وتواتر الكوارث الطبيعية ذات الكلفة الاقتصادية والاجتماعية المرتفعة. وفي هذا السياق، يؤدّي تباطؤ النمو الاقتصادي وتشديد القيود على الموارد العمومية إلى تضييق هوامش التدخّل العمومي، بما يحدّ من قدرة الدول على الاستجابة الفعّالة لهذه الأزمات، وعلى الاستثمار في أولويات التنمية طويلة الأجل، ولا سيما في مجالات الصحة والتعليم والحماية الاجتماعية وبناء القدرة على الصمود.[94] وليس من قبيل المبالغة بشيء الادعاء بأن أبرز تحد يواجه الدول العربية عامة، والمغاربية على وجه التحديد، التي تمر في طور التحوّل إلى الديمقراطية، هو تحدي إدارة الإنفاق الاجتماعي العام، الذي يشمل ما تنفقه الدول على الصحة والتعليم والإعانات المباشرة والدعم النقدي للأسر المعوزة، علاوة على نفقات التقاعد والتأمينات الاجتماعية،[95] ولذلك فهو يرتبط ارتباطًا مباشرًا بتحقيق أهداف التنمية المستدامة العالمية.[96]

على مدى العقود الستة الماضية، لجأت الدول العربية إلى تقديم الرعاية الاجتماعية لمواطنيها بهدف القيام بخطوات كبيرة نحو تحقيق رفاه مجتمعاتها. فبعد أن انطلقت هذه الدول من

93 الحبيب استاتي زين الدين، «المنطقة المغاربية وإشكالية هجرة الكفاءات: في الحاجة إلى استخلاص الدروس،» المناهل، وزارة الثقافة والشباب والرياضة -قطاع الثقافة-، ع 100 (2020).

94 البنك الدولي، «حقبة جديدة في مجال التنمية» (البنك الدولي، 2023) 3.

95 إبراهيم سيف، «الإنفاق الاجتماعي في الدول العربية... تجارب فاشلة»، مركز مالكوم كبر- كارنيغي للشرق الأوسط، 18.05.2024، https://2h.ae/yOUj

96 مرصد الإنفاق الاجتماعي للدول العربية، «نحو جعل الميزانيات أكثر إنصافا وكفاءة وفعالية لتحقيق أهداف التنمية المستدامة» (الإسكوا، 2022)، 20.

المؤشرات الاجتماعية الضعيفة نسبيًا التي كانت تسجّلها عشية استقلالها، قفز معظمها قفزة كبيرة إلى الأمام في قطاعي التعليم والصحّة. وفي العقدَين الماضيين، نجحت المنطقة العربية في سدّ بعض الفجوات بين الأغنياء والفقراء، وفي تقليل التفاوتات بين الجنسَين فيهما. ولكن، في الوقت نفسه، لا تزال أوجه القصور في الإنفاق الاجتماعي العام قائمة، وهي تؤدي إلى ترسيخ الفقر وتقييد تحقيق نمو اقتصادي أكثر دينامية وشمولًا. فميزانيات الدول العربية لا تخصّص للإنفاق الاجتماعي أقلّ من المتوسط العالمي فحسب، بل إنّها تنفق أيضًا إنفاقًا أقلّ كفاءة في هذا المجال. وهذا ما يؤدّي إلى هدر مليارات الدولارات في بعض الحالات، وتضييع حصة كبيرة من الناتج المحلي الإجمالي.[97] وسأسوق بعض الأدلة على ما أزعمه، لكن يستحسن أن نتفق بداية أن المنطقة المغاربية، اليوم، تواجه تحديات إنمائية كبيرة تفاقمت بسبب الجائحة الأخيرة والآثار غير المباشرة للحرب في أوكرانيا على أسعار الغذاء والطاقة. فقد تزايدت نسبة الفقر، وارتفعت نسب التفاوت في الدخل والثروة. وبصرف النظر عن مواردها وثرواتها المتنوعة، فاقتصاداتها بقيت قليلة التنوّع بشكل عام، ويغطي النشاط غير المهيكل حصصًا كبيرة ومؤثرة. أمّا الحيز المالي المخصّص لتمويل النفقات الاجتماعية والإنمائية فإنّه لا يزال غير كاف لتلبية الاحتياجات الضرورية جميعها، ولم يكن جاهزًا كذلك لتلبية متطلبات الاستجابة للجائحة.

تواجه جميع دول المنطقة، بما في ذلك المغرب والجزائر، إكراهات مستمرة في الوصول إلى أهداف التعليم، وذلك نتيجة ضعف جودة الخدمة التي تقدّمها المؤسسات التربوية، واستمرار الاعتماد على أساليب التعليم والتعلّم التقليدية، وتواضع معايير الإنصاف وتكافؤ الفرص في تأمين إمكانية الوصول إلى الخدمات العامة، وضعف البنى التحتية التي تدعم جهود التعليم وآفاقه على الرغم من الجهود الذي بذلت في هذا الجانب، والديون التي ترتبت عنها.

الشكل 5: مقارنة بين إجمالي الإنفاق العام على التعليم في الجزائر والمغرب (% من الإنفاق الحكومي)[98]

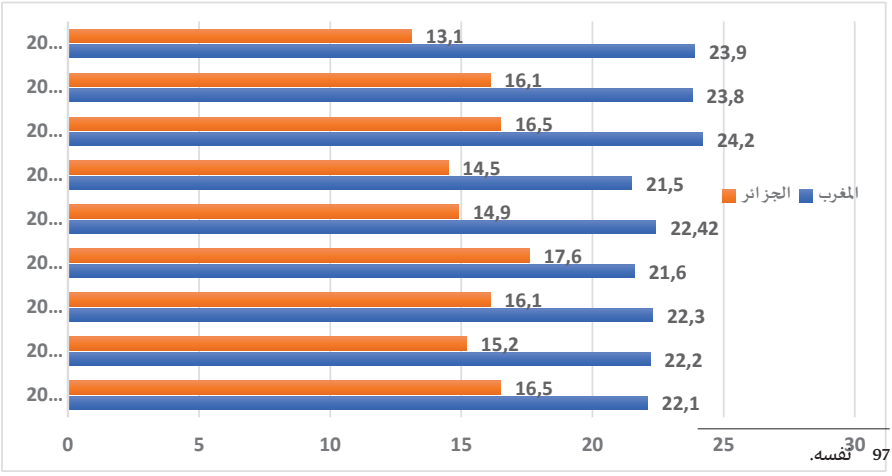

97 نفسه.

98 إعداد الباحث بالاستناد إلى قاعدة بيانات البنك الدولي، 02.05.2024، https://m-r.pw/TOLR

فيما يتعلق بإجمالي الإنفاق الحكومي على التعليم، يبرز الرسم البياني أن المغرب يفوق الجزائر؛ إذ تجاوز متوسط الإنفاق على هذا القطاع الاستراتيجي في المغرب 22,5 % ما بين 2014-2022، في حين بلغ متوسط الإنفاق في الجزائر 15,66 % في نفس الفترة الزمنية.

الشكل :6 مقارنة بين الإنفاق العسكري والتعليم في المغرب (% من الإنفاق الحكومي)[99]

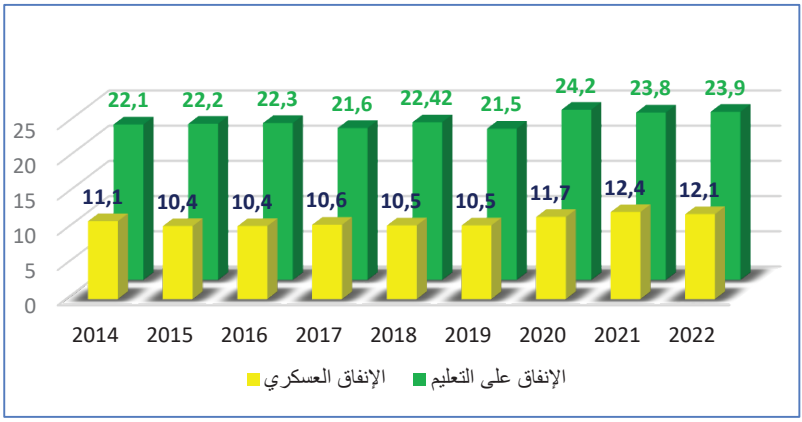

وبمقابلته مع الإنفاق على التعليم، الملاحظ في الشكل (6) أن ميزانيته مرتفعة دائمًا عن الإنفاق العسكري في المغرب، بل يظهر أن هذه الأخيرة تبلغ، غالبًا، الضّعف أو تفوقه أو تقترب منه، وهو ما يعكس، على مستوى الأرقام على الأقل، وعيًا بأهمية الاستثمار في التعليم. بينما في الحالة الجزائرية، يتماثل متوسط الإنفاق العسكري والإنفاق على التعليم، إذ بلغا معا ما بين 2014-2022 نسبة 15,54 % من الإنفاق الحكومي، مع تسجيل ارتفاع مستمر في السنوات الأخيرة لصالح الإنفاق (العبء) العسكري. وكاستنتاج عام، تتأكد حاجة قطاع التعليم في الجزائر للمزيد من الموارد المالية، خاصة عمومية المصدر؛ حتى يتسنى له توسيع عرض خدماته، وتجويدها، فيما يحتاج الإنفاق العمومي على التعليم في المغرب للمزيد من إجراءات الحكامة والترشيد.[100] صحيح أن قطاع التربية والتكوين في المغرب الذي يعتبر ثاني أولوية وطنية عرف عدة محاولات للإصلاح تروم تحسينه والرفع من مردوديته ليستجيب لمتطلبات التنمية الاقتصادية والاجتماعية للمملكة، غير أنه ما زال موضوع عدة انتقادات سواء على مستوى المؤسسات الدستورية (البرلمان والحكومة والمجلس الأعلى للتربية والتكوين والبحث العلمي) أو على مستوى المجتمع.[101] ويستشف من خلال تقرير المجلس الأعلى للحسابات حول تقييم كلفة المخطط الاستعجالي لإصلاح التعليم، أن حجم الاعتمادات المفتوحة، والتي تعكس مجهود

99 إعداد الباحث بالاستناد إلى قاعدة بيانات البنك الدولي، 02.05.2024، https://m-r.pw/iFpm

100 العوفي، 28.

101 المجلس الأعلى للحسابات (المملكة المغربية)، تقرير تقييم المخطط الاستعجالي لوزارة التربية الوطنية (الرباط: المجلس الأعلى للحسابات، 2018)، 7.

الدولة تجاه قطاع التعليم خلال الفترة الممتدة بين 2009 و2012، سجّل ارتفاعًا بنسبة 230 في المائة[102] مقارنة مع الاعتمادات التي تم رصدها لفائدة القطاع خلال الأربع سنوات التي سبقت هذه الفترة. غير أن الأداء يبقى ضعيفًا سواء على مستوى الالتزام بالنفقات أو على مستوى معدل صرفها، ويرجع ذلك بالخصوص إلى ضعف القدرات التدبيرية سواء من حيث في تنفيذ المشاريع أو من حيث التدبير المالي والمحاسبي.[103]

الشكل 7: مقارنة بين الإنفاق العسكري والإنفاق الاجتماعي (% إجمالي من الناتج المحلي) ما بين 2017 و2021.[104]

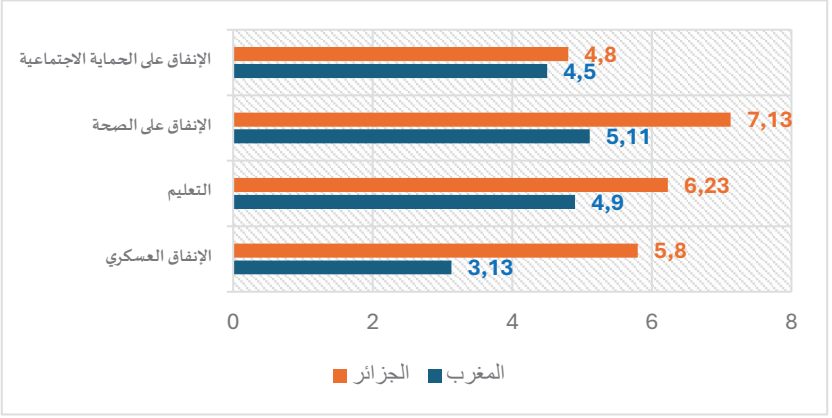

وكما يوضح الرسم البياني أسفله بدوره، في الجانب المرتبط بالإنفاق على التعليم ما بين 2017 و 2019، أن الإنفاق على التعليم في الجزائر نسبة إلى الناتج الداخلي الخام يتجاوز نظيره في المغرب؛ إذ يقدر في الأولى بنحو 5,8 %، فيما بلغ الثاني 3,13 % في الثانية.

102 بلغ حجم الموارد المعبأة، مع استثناء كتلة الأجور، 21,34 مليار درهم تم الالتزام بمبلغ 35,05 مليار درهم منها، وأداء مبلغ 5251, مليار درهم منها. أي بمعدل أداء قدره 58 %. وتبقى هذه النسبة أدنى من معدل تنفيذ الميزانيات القطاعية المسجلة على مستوى الميزانية العامة للدولة خلال نفس الفترة.

103 المجلس الأعلى للحسابات، 90.

104 إعداد الباحث بالاستناد إلى قاعدة بيانات البنك الدولي، 03.05.2024، https://m-r.pw/VVRY

الشكل 8: مقارنة بين الإنفاق العسكري والتعليم في الجزائر (% من الإنفاق الحكومي)[105]

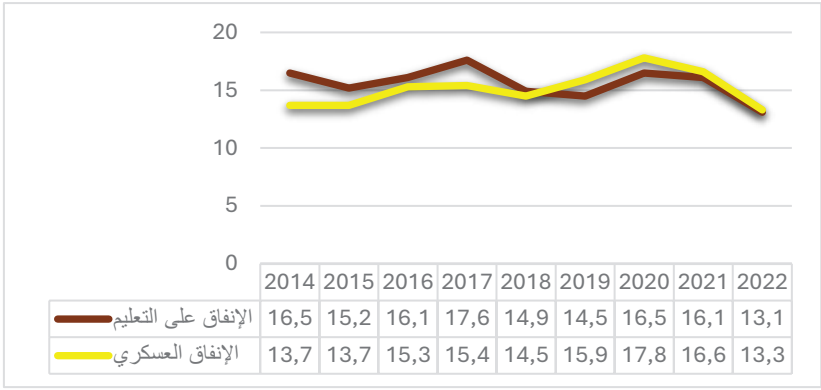

	2014	2015	2016	2017	2018	2019	2020	2021	2022
الإنفاق على التعليم	16,5	15,2	16,1	17,6	14,9	14,5	16,5	16,1	13,1
الإنفاق العسكري	13,7	13,7	15,3	15,4	14,5	15,9	17,8	16,6	13,3

إن التعريف الذي تقدمه المادة الثانية عشرة من العهد الدولي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية يجعل الحق في الصحة حقًا شموليًا، لا يقتصر على توفير العلاجات الضرورية في الوقت المناسب فحسب، بل يشمل كذلك العوامل الأساسية المحددة للصحة غير المرتبطة بالضرورة بمسألة الولوج للرعاية الصحية أو توفير بنيات استشفائية. وقد تكرس الوعي بالعلاقة بين حقوق الإنسان ومحدداتها الضمنية بإنشاء منظمة الصحة العالمية للجنة المحددات الاجتماعية للصحة سنة 2005 والتي أنيطت بها مهمة جمع وتركيب المعطيات حول المحددات الاجتماعية للصحة وأثرها على التفاوتات في مجال الصحة من مختلف دول العالم. وخلصت اللجنة في تقريرها النهائي إلى أن الشروط التي يولد فيها الناس ويكبرون ويعيشون ويشيخون تحدد وضعهم الصحي بشكل كبير، إذ أكدت على أنه في كل دول العالم تتحدد الصحة والمرض بشكل تناسبي مع السلم الاجتماعي، فكلما كان الوضع السوسيو-اقتصادي للأشخاص متدنيًا كانت أوضاعهم الصحية سيئة.

ويبدو هذا الترابط بين الحق في الصحة وباقي الحقوق أكثر وضوحًا في سياق الفقر، فأن الصحة الجسدية والعقلية تعتبر الثروة الوحيدة التي يعتمد عليها الفقراء من أجل الاستفادة من باقي حقوقهم الاقتصادية والاجتماعية، كالحق في الشغل والحق في التعلم. وفضلًا عن ذلك فإن الصحة الجسدية والعقلية هي ما يمكن الأطفال من التعلم والكبار من العمل، في حين يشكل سوء الأوضاع الصحية عبئًا على الأفراد أنفسهم وعلى من يتكلفون برعايتهم.

وعلى الرغم من أن التمويل الصحي يعتبر ركنًا أساسيًا لفعالية الحق في الصحة، فإن الميزانية العامة لوزارة الصحة المغربية ما زالت تتراوح بين 6 % و7 % من الميزانية العامة عوض 21% الموصى بها من قبل منظمة الصحة العالمية أو مقارنة مع دول أخرى (10.7 % في الجزائر، و 12.4% في الأردن و13.6 % في تونس). كما أن الإنفاق الصحي يبقى أقل من 6 % من الناتج

105 إعداد الباحث بالاستناد إلى قاعدة بيانات البنك الدولي، 03.05.2024، https://m-r.pw/Vzrz

المحلي الإجمالي، وهو أقل من المعدل العالمي الذي يبلغ 10 %. وبالإضافة إلى هذا المستوى المنخفض من الإيرادات، يتم تمويل النفقات الصحية أساسًا من طرف الأسر بنسبة 63,3 %، منها 50,7 % بشكل مباشر، و24,4 % من الموارد الضريبية، و22,4 % من اشتراكات الضمان الاجتماعي .ويبلغ إجمالي الإنفاق على الصحة للفرد 161 دولارًا بينما يبلغ 174 دولارًا في المتوسط بالنسبة للبلدان ذات الدخل المتوسط الأعلى، أو بلدان مثل الأردن (250 دولارًا) أو تونس (340 دولارًا). ولذلك فإن منظمة التجارة والتعاون الاقتصادي OCDE تقدر أن على المغرب أن يرفع، في أفق سنة 2030، مستوى الإنفاق الصحي بمقدار 5.2 نقطة مئوية من الناتج المحلي الإجمالي، ليبلغ 8.2 % من الناتج المحلي الإجمالي، أو 107 مليار درهم بما في ذلك 77 مليار درهم من الميزانية العامة، من خلال العمل على توسيع التغطية الصحية وتعزيز المساهمات، والمداخيل الجبائية. سيوفر تعميم التغطية الصحية مداخيل جديدة لتمويل المنظومة الصحية في القطاعين العام والخاص. لذلك فمن شان تأهيل المستشفيات العمومية وتحسين خدماتها أن يساهم في استقطابها لمزيد من التمويل من طرف التأمين الإجباري عن المرض.[106] وبغض النظر عن ملاحظة أن عدد الأطقم الصحية الجزائرية، من الأطباء والممرضين، تضاعف أعداد نظرائهم في المغرب تقريبًا؛ إلا أن ارتفاع الإنفاق العمومي على الصحة في الجزائر لم ينعكس إيجابًا على جودة الخدمات الصحية المقدمة، ما يعني أن أوجه صرف هذا الإنفاق تفتقر بدورها للحكامة والترشيد على غرار الإنفاق على التعليم في المغرب.[107]

أما بخصوص الحماية الاجتماعية، فيلاحظ أن كلتا الدولتين تخصّصان نسبة ضعيفة من ناتجها الداخلي الخام للإنفاق على الحماية الاجتماعية بمختلف مكوناتها كما تحددها منظمة العمل الدولية، والتي تشمل أنظمة التقاعد، والتعويضات العائلية، ودعم الأشخاص العاطلين عن العمل، ومساعدة ذوي الاحتياجات الخاصة، وآليات دعم سوق الشغل، والتأمينات الاجتماعية، والمساعدات النقدية للفئات الهشّة. وخلال الفترة الممتدة بين 2017 و2021، بلغ هذا الإنفاق في المغرب نحو 4.5% من الناتج الداخلي الخام، بينما بلغ في الجزائر 4.8%، وهي نسب بعيدة جدًا عن تلك المسجّلة في الدول الأعضاء في منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية (OCDE)، حيث وصل معدل الإنفاق على الحماية الاجتماعية سنة 2022 إلى 21.1%، بما يكشف حجم التفاوت، وما يُنتجه من آثار هيكلية على مستويات العيش وجودة الخدمات وتوزيع الفرص.[108]

وتتجاوز أهمية الإنفاق على الحماية الاجتماعية حدود الدعم المباشر للأسر أو تخفيف آثار المخاطر الاجتماعية، لتشكل رافعة أساسية في تعزيز التماسك الاجتماعي والاستقرار السياسي. فضعف هذه المخصصات يُترجم في العادة إلى هشاشة أكبر أمام الصدمات الاقتصادية، واتساع دائرة الفقر متعدد الأبعاد، وتفاقم التفاوتات المجالية والاجتماعية، وارتفاع معدلات البطالة، خاصة بين الشباب والنساء. وتشير تقارير دولية إلى أنّ كلا البلدين يواجه تحديات هيكلية

106 المجلس الوطني لحقوق الإنسان، فعلية الحق في الصحة: تحديات، رهانات ومداخل التعزيز (الرباط: المجلس الوطني لحقوق الإنسان، فبراير 2022)، 37 وما بعدها.

107 العوفي، 29.

108 منظمة التعاون والتمية الاقتصادية، قاعدة بيانات حول مؤشرات النفقات الاجتماعية، 29.05.2024، https://2u.pw/YypldVGJ

في عالم الشغل، تتجلى في ارتفاع نسبة العمالة غير المهيكلة، وضعف الحماية القانونية والاجتماعية للأجراء، وغياب شبكات أمان فعّالة للأسر ذات الدخل المحدود، ما يجعل أثر الإنفاق المحدود على الحماية الاجتماعية ضعيفًا وغير كاف لمعالجة الفوارق البنيوية أو لخلق دينامية حقيقية للتنمية البشرية. ويمكن اعتبار هذا الضعف أحد العوامل التي تحدّ من قدرة الإنفاق الاجتماعي على تحسين مؤشرات الرأسمال البشري، مثل نسب الالتحاق بالتعليم ما بعد الإعدادي، ومستويات الإتقان القرائي والعددي، ومعدلات الولوج إلى الرعاية الصحية الأولية، فضلًا عن محدودية الاندماج الاقتصادي. كما ترتبط محدودية الإنفاق الاجتماعي بضعف فعالية سياسات الدعم الموجه للفئات الهشّة، وبغياب أنظمة تعويض البطالة أو التعويض عن فقدان الدخل، التي تشكل أداة مركزية في السياسات الاجتماعية الحديثة.

إن مقارنة هذه المعطيات مع الدول المتقدمة تُظهر أن الاستثمار في الحماية الاجتماعية ليس تكلفة محضة، بل هو مكوّن بنيوي في أي استراتيجية تنموية ناجحة، باعتباره يسهم في خلق مجتمع أكثر تماسكًا، واقتصاد أكثر مرونة، وسوق شغل أكثر قدرة على امتصاص الصدمات. ومن ثمّ، فإن التجربتين المغربية والجزائرية، رغم اختلافهما، لا تزالان في حاجة إلى إعادة هيكلة شاملة لسياسات الحماية الاجتماعية، بما يشمل إصلاح أنظمة التقاعد، وتوسيع التغطية الاجتماعية، وتعزيز الدعم الموجه للفئات الضعيفة، وربط هذه الجهود بسياسات نشيطة للتشغيل، حتى يتسنى فعلًا تحويل الحماية الاجتماعية إلى رافعة للتنمية وليس مجرد آلية لتدبير الهشاشة.

وإذا دققنا النظر في الإنفاق الاجتماعي بمكوناته الثلاثة على الأقل (التعليم والصحة والحماية الاجتماعية) في المغرب والجزائر، سنجد أن نسبه متقاربة في البلدين؛ إذ يبلغ في المغرب حوالي 16,71 %؛ وفي الجزائر ما يناهز 16,28%. وبهذا الحجم من الإنفاق، تصنف الدولتان ضمن الدول النامية ذات الإنفاق الاجتماعي الضعيف، وهو ما يفيد وجود تشابه في سوء توزيع الثروة الوطنية واستمرار الطرق غير المشروعة للاستيلاء عليها، مع اختلاف في الدرجة وليس في النوع، بالنظر لفشل أنظمة المغاربية في خلق نظام اقتصادي تنافسي عادل تكون فيه المسافة بين السلطة والثروة واضحة. في غياب اقتصاد بهذه الميزة، أصبحت تقترب بلدانه، في صيغتها الحالية، من معادلة التنمية بدون ديمقراطية. لذلك، فلا غرابة أن نقرأ في التقارير التنموية الإقليمية والأجنبية عن تفاقم معدلات الفقر والبطالة فيها، مع العلم أن الفقر هو حال من الحاجة المستمرة والشقاء الحاد الذي يكمن خزيه في قوته التي تُجرّد الإنسان من إنسانيته؛ فهو مهين، بحسب تعبير حنة أرندت، لأنه يضع البشر تحت الإملاءات المطلقة لأجسادهم أو تحت الأمر الأساسي للضرورة كما عرفها الناس من تجربتهم الذاتية الحميمة وخارج نطاق التخمينات كلها.[109] هذا في الوقت الذي خضعت فيه كافة المجتمعات المغاربية لتحولات متسارعة عديدة، من تجلياتها الانتقال الديمغرافي البارز، والتحول من العائلة الممتدة إلى الأسرة النووية، وتزايد نسبة التمدن (حيث يتجاوز60%)، وتنامي دور الطبقة الوسطى، وانتشار التعليم، وتفشي بطالة الشباب، واهتزازات في القيم وفي العلاقات الاجتماعية، وفي

109 حنة أرندت، في الثورة، ترجمة عطا عبد الوهاب، ط 1 (مركز دراسات الوحدة العربية، 2008)، .82

الوعي بالذات وبروز تعبيرات الفردانية.[110] ومن ثمّ، لم تكن هذه المنطقة الجغرافية بمنأى عن الفاعلية الاحتجاجية التي أصبحت توجد في صلب التحول، الذي يسم طبيعة هذه المجتمعات، بالنظر إلى كون الاتساع الكميّ والكيفيّ للاحتجاجات الجماعية صار لازمة للفضاءات العامة في مجالات مختلفة، حضرية أكانت أم قروية أم شبه حضرية.[111]

والمستفاد أنه بعد مضي أكثر من ستين سنة على استقلال أغلب البلدان المغاربية، عجزت نماذج التنمية المتّبعة عن الاستجابة الجيدة والدائمة لحاجات السكان المعيشية؛ فنحن لم نصادف خروج حركة جماعية غاضبة تطالب الدولة أو جهة أو جهات معيّنة بالتقليص من امتيازاتها، والتنازل عنها لمصلحة فئة أو فئات معيّنة، وإنما ارتبط اتخاذ قرار الاحتجاج دومًا بالمطالبة بقسط من الامتياز، بل فقط ضمان الحد الأدنى من الحقوق الأساسية التي لا ترتبط أساسًا بما هو مادي فقط، بل بما هو حقوقي قيميّ أيضًا، فضلًا عن أن المشاركة في الاحتجاجات لم يحركها دائمًا التطلع إلى شيء جديد، إنما ارتبطت، في حالات كثيرة، بالتشبث بما هو مستحق قديم. ولربما الاكتفاء بالتنفيس الدوري لا يجدي دائمًا في نزع شوكة الفعل الاجتماعي، بل لعله المضاد الحيوي الذي ينجح في التخفيف من الآلام مؤقتًا، لكنه لا يزيد الجسم إلا ضعفًا ومسببات الداء مناعة.[112]

خاتمة

حاولت توظيف المنظور الواقعي في تحليل ظاهرة التسابق نحو التسلح عربيًّا، مع التركيز على المنطقة المغاربية بوصفها أنموذجًا كاشفًا لتوتر العلاقة بين الأمن والتنمية. ولن يكن المقصود من هذه الخاتمة إعادة عرض جميع مضامين هذا العمل، بقدر ما هو استعادة لأهم النتائج الرئيسة التي أمكن التوصل إليها، مع التنبيه إلى صعوبة الادعاء بالإحاطة الشاملة بموضوع يتسم بدرجة عالية من الحساسية، ويتسم بسرعة تطوره وتعدد فاعليه وتشابك مستوياته. ويزداد هذا التعذر حدة إذا استحضرنا اختلاط الحقائق بالتمثلات والأوهام والأحكام المسبقة، وصعوبة الحصول على معطيات دقيقة وموثوقة حول مجالات الإنفاق العسكري وحجمها الحقيقي، بحكم القيود القانونية والمؤسسية، فضلًا عن اعتبارات السرّية والهاجس الأمني.

في ضوء ذلك، من الطبيعي أن يتسرّب قدر من التعميم إلى بعض الفقرات عند تناول موضوع إشكالي عابر للتخصصات لم ينل بعدُ نصيبه الكافي من البحث العلمي الرصين، ولا سيما في الأدبيات العربية في حقل العلاقات الدولية، رغم أهميته النظرية والعملية. فالدراسات العربية التي تناولت ظاهرة التسابق نحو التسلح ما تزال، في مجملها، محدودة من حيث

110 محمد نور الدين أفاية، «الفاعلون السياسيون والاجتماعيون في التحولات العربية الراهنة»، في: التحولات الاجتماعية في العالم العربي، تجارب مقارنة، أشغال الملتقى الثاني لجهة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا للمجلس العالمي للعمل الاجتماعي، شبكة المغرب للمجلس العالمي للعمل الاجتماعي، ط1 (: مطبعة البيضاوي، 2012)، 15.

111 الحبيب استاتي زين الدين، «الممارسة الاحتجاجية بالمغرب: دينامية الصراع والتحول،» عمران للعلوم الاجتماعية، ع 19، المجلد الخامس (2017).

112 زين الدين، «الممارسة الاحتجاجية بالمغرب،» 159-158.

اختبار الأطر النظرية الكبرى، وبخاصة النظرية الواقعية، التي جرى توظيفها في هذا البحث لا بوصفها أداة تفسير فحسب، بل أيضًا كإطار خضع بدوره للاختبار النقدي من حيث قدرته التفسيرية وحدود صلاحيته في سياقات إقليمية غير غربية.

ومع ذلك، تحاول هذه الورقة أن تُبرز كيف يسهم استمرار وتصاعد الإنفاق العسكري في المنطقة، تحت ضغط هاجس اختلال ميزان القوة بين أطراف الصراع في المغرب الكبير، في تكريس معضلة «الأمن على حساب التنمية»، سواء من خلال تأثير البعد السياسي في توجيه الخيارات الاقتصادية، أو عبر التضحية بفرص تنموية ممكنة في مجالات التعليم والصحة والحماية الاجتماعية والبنى الإنتاجية. وتُظهر النتائج أن ضعف الثقة المتبادلة بين دول المغرب الكبير، ولا سيما بين المغرب والجزائر، يظل عاملًا بنيويًا معرقلًا لأي تصوّر جدّي لأمن جماعي أو تعاون تنموي مشترك، بما يجعل المنطقة حبيسة منطق توازنات هشّة، أكثر مما هي منخرطة في مشروع استراتيجي طويل المدى يزاوج بين مقتضيات الردع العسكري واستحقاقات التنمية البشرية المستدامة.

وفي هذا السياق، لا تنطلق الدراسة من موقف معياري يُنكر أهمية الأمن أو يُقلّل من ضرورته، خاصة في بيئات إقليمية مضطربة لا تخضع دائمًا لمنطق العقل أو الحكمة السياسية، حيث تُفرَض أحيانًا اعتبارات الردع والبقاء كشرط أولي للحفاظ على الاستقرار ومنع الانزلاق إلى العنف المفتوح. غير أن الإشكال الجوهري، كما تُظهره هذه الورقة، يكمن في تحويل الأمن من وسيلة وظيفتها حماية مسار التنمية إلى غاية قائمة بذاتها، تُستنزف في سبيلها الموارد العمومية على حساب الاستثمار في الإنسان والمؤسسات والاقتصاد المنتج.

ولا بدّ من التذكير، في هذه الخاتمة، بأن جزءًا مهمًا من هذا الإشكال يرتبط بطبيعة المقاربات النظرية السائدة في جانب معتبر من الأدبيات العربية في حقل العلاقات الدولية، إذ ما يزال عدد من الباحثين يوظفون النظرية الواقعية بوصفها إطارًا تفسيريًا يُركّز أساسًا على توازنات القوة العسكرية، دون إدماج مسألة التنمية في التحليل، وكأن القوة تُختزل في بعدها الصلب وحده. والحال أن التجربة التاريخية والمقارنة تُظهر أن القوة، في معناها الأشمل، ليست معطى عسكريًا صرفًا، بل هي نتاج تفاعل معقّد بين القدرات العسكرية والاقتصادية والاجتماعية والمؤسسية، وأن تجاهل هذا التفاعل يُفضي إلى قراءات جزئية تعجز عن استيعاب التعقيد الحقيقي للإشكالات الأمنية والتنموية، خاصة في السياقات غير الغربية.

ويُعزّز هذا الاستنتاج واقع تجريبي يكاد يكون ثابتًا في العلاقات الدولية، مفاده أنّه قلّما نجد دولة تمتلك قوة عسكرية معتبرة من دون أن تكون، في الوقت ذاته، متقدمة صناعيًا واقتصاديًا، وقادرة على تحقيق حدّ أدنى من الاكتفاء الذاتي في المجالات الاستراتيجية. فالقوى الكبرى التي تستثمر بكثافة في التسلّح إنما تفعل ذلك انطلاقًا من قاعدة إنتاجية متينة، واقتصاد متنوّع، وبنية تكنولوجية ومعرفية متقدمة، تُمكّنها من تحمّل كلفة الإنفاق العسكري دون تقويض أسس التنمية. ومن ثمّ، فإن نقل منطق القوة الصلبة إلى سياقات تعاني هشاشة اقتصادية

واعتمادًا بنيويًا على الخارج، من دون استكمال شروط التنمية الصناعية والاقتصادية، لا يُفضي إلى تعزيز القوة الشاملة للدولة، بقدر ما يُفاقم اختلالاتها البنيوية ويُضعف قدرتها على تحقيق أمن مستدام.

أولًا، إذا ما قورنت متوسطات الإنفاق الحكومي على الدفاع بالإنفاق الاجتماعي، مع التركيز على مكوّناته الرئيسة الثلاثة (التعليم، والصحة، والحماية الاجتماعية) خلال العقد الأخير من القرن الحادي والعشرين، يتبيّن أن المؤسسة العسكرية تستحوذ على حصة وازنة من الميزانية العامة في كلّ من المغرب والجزائر. ويعكس هذا الواقع دخول البلدين في سباق نحو التسلّح، بصرف النظر عن كلفته المالية الباهظة، تحت مبرّر وجود مخاوف أمنية محلية وإقليمية-معلنة أو ضمنية-تراكمت منذ ستينيات القرن الماضي. وفي المقابل، اتجهت السياسات العمومية إلى التضييق على الإنفاق الاجتماعي، واللجوء إلى الخوصصة أو الاقتراض من المؤسسات الدولية لتغطيته، في الوقت الذي تتضاعف فيه أرباح الدول المصدّرة للسلاح، ولا سيما روسيا والصين في حالة الجزائر، والولايات المتحدة وفرنسا وبريطانيا في حالة المغرب.

وحيث إن الموارد المتاحة لأي اقتصاد تظلّ محدودة على المديين القصير والمتوسط، ومعرّضة للصدمات في سياقات الأزمات والكوارث-وهو ما ينطبق على المنطقة المغاربية بوضوح-فإن الدولة التي ترفع إنفاقها الدفاعي تُجبر، بحكم الضرورة، على تقليص الإنفاق في مجالات أخرى. ويُظهر الواقع المغاربي أن هذا التقليص يمسّ، في المقام الأول، الإنفاق الاجتماعي، بما يفضي إلى اتساع رقعة الفقر وتفاقم هشاشة الفئات الضعيفة، نتيجة تحمّلها أعباء إضافية في ظل تدهور القدرة الشرائية مقارنة بباقي الفئات الاجتماعية.

ثانيًا، لا يقتصر هدر التنمية في البلدين على الكلفة المباشرة للإنفاق العسكري، بل يشمل أيضًا خسارة غير مباشرة لجزء معتبر من النمو الاقتصادي الممكن، نتيجة عدم استثمار العوائد التي تتيحها البيئة الجيو-استراتيجية الغنية بفرص التعاون الإقليمي. ويعود ذلك، أساسًا، إلى استمرار الصراع التاريخي بين المغرب والجزائر، وما يخلّفه من استقطاب متزايد في بقية دول المغرب الكبير. ووفق المنظور الواقعي، فإن من أبرز مشكلات الأقاليم السياسية شدة التنافس بين دول الإقليم الواحد على احتلال موقع الدولة المركزية، لما يتيحه ذلك من قدرة على توجيه تفاعلات الإقليم مع الخارج بما يخدم مصالحها. وكلما ازداد تقارب موازين القوى بين هذه الدول احتدم التنافس بينها، وتغذّى بعوامل تاريخية ومعاصرة تُترجم، في نظر بعض الباحثين، إلى اختلافات في الاختيارات والتوجّهات الاستراتيجية.

غير أن استحضار التحديات الراهنة-من تغيّر المناخ، وتقلبات الاقتصاد العالمي، وحالة عدم اليقين المرتبطة بالحرب في أوكرانيا-يفرض تساؤلًا جوهريًا: ألا يقتضي التفكير الاستراتيجي العقلاني تجاوز منطق العداء والتنافس غير المنتج، ليس فقط لأنه مُهدر للثروة، بل لأنه قد يتحوّل إلى تهديد للبقاء ذاته؟ ويزداد هذا الهدر اتساعًا مع تشكّل أعطاب نفسية وذهنية تعيق الإدراك الرشيد لحقيقة أن التكتل والاندماج الإقليميين ليسا مسألة سياسية محضة، بل مسألة بقاء في عالم شديد التنافس.

وفي هذا السياق، تقدّم التجربة الأوروبية مثالًا دالًا؛ إذ تجاوز الأوروبيون تاريخًا طويلًا من الصراعات الدامية، ونجحوا في بناء مستويات متقدمة من الاندماج الإقليمي، ليس بدافع المثالية، بل استجابة لحتمية البقاء. وهو ما يدعو إلى إعادة النظر في المفهوم التقليدي للسيادة الذي لا يزال يُتداول في جامعاتنا بمعزل عن التحولات العميقة التي طالت طبيعة السيادة ذاتها. فامتلاك الموارد، كالمجال البحري مثلًا، لا يكتمل إلا بامتلاك التكنولوجيا والقدرات التي تمكّن من استثمارها وحمايتها، وإلا تحوّلت إلى غنيمة لمن يمتلك هذه الأدوات ويُحسن توظيفها، بما في ذلك أدوات القوة الناعمة.

وتُظهر ناشطية السفارات الأجنبية في بلدان المغرب الكبير-لا سيما في المجال الثقافي-البعد الإنتاجي للسيادة بوضوح. ففرنسا، على سبيل المثال، حرصت منذ نهاية الحرب العالمية الثانية على ترسيخ حضورها السياسي والثقافي، بعد أفول نموذج الاستعمار العسكري المباشر، مستثمرة المدخل اللغوي والتربوي عبر توطين اللغة الفرنسية وتحويلها إلى ما يشبه «العقيدة التعليمية»، وهو ما تُوّج بإنشاء المنظمة الدولية للفرنكوفونية عام 1970، التي توسّعت وظائفها لاحقًا لتشمل مجالات سياسية واقتصادية وأمنية.

وعليه، تبدو الاستفادة من هذه البراغماتية الأوروبية في استغلال الفرص وتعزيز الاندماج الداخلي أمرًا ملحًّا، لا سيما أن تعطّل مشروع الاتحاد المغاربي يحرم المنطقة من مكاسب استراتيجية كبرى، من بينها إنشاء سوق إقليمية تقارب 100 مليون نسمة، وتعزيز جاذبية الاستثمار، وخفض تكاليف التبادل، وتحسين كفاءة تخصيص الموارد، وزيادة القدرة على التفاوض الجماعي. وقد قدّر البنك الدولي كلفة «التعاون المعطّل» بما يتراوح بين 1 و2 في المئة من الناتج الداخلي الخام لكل بلد، وهي نسب كان من شأن توجيه جزء منها للإنفاق الاجتماعي أن يعزّز قدرة المجتمعات المغاربية على الصمود في ظل هشاشة أوضاعها الاقتصادية والاجتماعية.

وتقود هذه المعطيات بعض الاتجاهات الواقعية إلى التقليل من قدرة الدول المغاربية على ممارسة فعل مؤثّر في ميزان القوى الدولي، مقابل الإقرار بما تتمتّع به الدول الغربية من فاعلية عقلانية وقدرة أكبر على توجيه التفاعلات الإقليمية والدولية. غير أنّ هذا التصور لا يخلو من اعتراضات معتبرة، ترى فيه اختزالًا للمقدّرات الاستراتيجية التي تزخر بها المنطقة، وتغاضيًا عن دينامية وعي سياسي جديد آخذ في التشكّل، يسعى إلى مقاومة أنماط الاستغلال الخارجي وإعادة تعريف موقع الفاعلين المغاربيين في محيطهم الإقليمي والدولي.

ومع أنّ هذا الوعي مرشّح للتطوّر على المدى المتوسط، فإن تحقّق أثره العملي يظلّ مشروطًا بتوحيد الإرادة السياسية المغاربية، وهو أمر لا يمكن فصله عن تحوّلات أعمق في إدراك معنى القوة وأولوياتها، وفي كيفية الموازنة بين متطلبات الأمن واستحقاقات التنمية. وفي هذا السياق، يكتسب قرار مجلس الأمن رقم 7972 لهذه السنة دلالة خاصة، بوصفه محطة مفصلية في مسار النزاع حول الصحراء، إذ يعكس انتقالًا في خطاب مجلس الأمن من الدعوة إلى تقرير المصير عبر الاستفتاء إلى إقرار شكل من أشكال تقرير المصير المعاصرة ضمن مقترح الحكم الذاتي

المغربي. ويُعدّ ذلك مكسبًا دبلوماسيًا للمغرب في إطار التنافس الإقليمي القائم،[113] في حين تواجه ما يسمى جبهة البوليساريو تحديات متزايدة مع تراجع الاعترافات الدولية بها. أما الأمم المتحدة، فهي أمام مهمة صعبة تتمثّل في تحويل القرار إلى عملية تفاوضية فعّالة تُسهم في منع انهيار وقف إطلاق النار وتيسير تقريب وجهات النظر. ومن المرجّح أن تمارس الولايات المتحدة ضغوطًا إضافية لدفع «البوليساريو» نحو الانخراط الإيجابي في هذه العملية، بما ينسجم مع مسار تسوية أكثر واقعية وأقرب إلى الإطار الذي حدّده القرار 2797.

غير أنّ هذه التطورات، كما يَحرص الخطاب الرسمي المغربي على التأكيد، لا تقدم بوصفها انتصارًا سياسيًا أو مدخلًا لتأجيج الصراع، بل باعتبارها فرصة لإعادة فتح أفق الحوار وتجاوز منطق القطيعة، من خلال الدعوة إلى بناء علاقات طبيعية قائمة على الثقة وروابط الأخوّة وحسن الجوار، ولا سيما مع الجزائر. بيد أنّ تفعيل هذا الأفق يظلّ مشروطًا بتهيئة بيئة إقليمية أقلّ استقطابًا، قادرة على تجاوز الحسابات التنافسية الضيّقة والانخراط في منطق تعاوني أوسع. وفي غياب هذا التحوّل، يستمرّ منطق التنافس الصفري في إبقاء المغرب الكبير أسير توازنات هشّة، ويعيد إنتاج معضلة الأمن والتنمية بدل تجاوزها، في سياق دولي وإقليمي يتّسم بتسارع التحوّلات الجيوسياسية والاقتصادية وتزايد حالات عدم اليقين. ومن ثمّ، فإن الخروج من دائرة الاستنزاف المتبادل لا يتوقّف على تسويات ظرفية بقدر ما يستدعي وعيًا استراتيجيًا جمعيًا يُعيد تعريف القوة باعتبارها حصيلة تفاعل بين الأمن والتنمية، بما ينعكس مباشرة على تحسين شروط عيش الشعوب، وتعزيز قدرتها على الصمود الاجتماعي والاقتصادي، وضمان حدّ أدنى من الاستقرار القائم على العدالة وتوسيع الفرص.

الاقتباس / Atıf / Citation

Zineddine, Elhabib Stati. "منطق التسلح ومعضلة التنمية من خلال النظرية الواقعيّة: حالة المغرب الكبير" *Ortadoğu Etütleri* 17, no 2 (2025): 123-168

113 وحدة الدراسات السياسية، «قرار مجلس الأمن رقم2797: خلفياته وتداعياته على مستقبل الصحراء الغربية» (المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2025) 9.

المراجع

أبو زيد، أحمد. «الواقعية الجديدة ومستقبل دول التعاون الخليجي بعد ثورات الربيع العربي.» سياسات عربية. العدد 17 (2015).

والتز، كينيث. «خمسون عاما من العلاقات الدولية (1959-2009).» المجلة العربية للعلوم السياسية. العدد 27 (2010).

أرندت، حنة. في الثورة، ترجمة عطا عبد الوهاب. مركز دراسات الوحدة العربية، 2008.

استاتي زين الدين، الحبيب. «الدور الفرنسي في المغرب الكبير: قراءة من منظور واقعي.» مجلة دراسات الشرق الأوسط، العدد 16 (2024).

أشاريا، أميتاف و باري بوزان. تشكيل العلاقات الدولية العالمية: أصول حقل العلاقات الدولية وتطوره في ذكراه المئوية. عالم المعرفة. العدد 502. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2023.

باراني، زولتان. الجندي والدولة المتغيرة: بناء جيوش ديمقراطية في أفريقيا وآسيا وأوروبا والأميركتين. المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2018.

باكير، علي . «نحو إطار نظري في صناعة القوة الناعمة.» سياسات عربية. العدد 53 (2021).

البنك الدولي. «حقبة جديدة في مجال التنمية.» 2023.

بوردن، هانز و إيان لي. إخضاع أجهزة المخابرات للمساءلة القانونية: المعايير القانونية والممارسة الأفضل للرقابة على أجهزة المخابرات. مركز جنيف للرقابة الديمقراطية على القوات المسلحة، 2005.

حسين، أحمد قاسم. «النظام الدولي وجائحة كورونا: سجال تأثير الأوبئة في العلاقات الدولية.» سياسات عربية. العدد 50 (2021).

الاتحاد الأوروبي والمنطقة العربية: القضايا الإشكالية من منظور واقعي. المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2021.

حمشي، محمد و عبد النور بن عنتر. «حراك 22 فبراير 9102 وانتفاضات الربيع العربي :حدود سردية الاستثناء الجزائري؟» عمران. العدد 43 (2023).

حمشي، محمد. «المغرب العربي بوصفه إقليما بلا إقليمية: قراءة في تقرير صندوق النقد الدولي عن الاندماج المغاربي (2018).» سياسات عربية. العدد 43 (2020).

دان، تيم و آخرون. نظريات العلاقات الدولية التخصص والتنوع. ترجمة ديما الخضرا. المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2016.

دياب، محمد. «جدلية العلاقة بين الإنفاق العسكري والتنمية الاقتصادية.» مجلة الدفاع الوطني. العدد 75 (2011).

زيد المرهون، عبد الجليل. «اتجاهات الردع في الخليج.» سياسات عربية، ع 22 (2016).

الصديقي، سعيد. تداعيات الحرب الروسية - الأوكرانية على النظامَين الدولي والمغاربي. المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2023.

الصواني، يوسف محمد. نظريات في العلاقات الدولية. منتدى المعارف، 2013.

عبد الحي، وليد. «العلاقات المغربية الجزائرية: العقدة الجيواستراتيجية.» سياسات عربية. العدد 6 (2014).

عبد الناصر، جندلي. التنظير في العلاقات الدولية بين الاتجاهات التفسيرية والنظريات التكوينية. دار الخلدونية، 2007.

العروي، عبد الله. مجمل تاريخ المغرب. ط 2. المركز الثقافي العربي، 2009.

العوفي، محمد. «الأمن مقابل التنمية في الدول المغاربية: دراسة لنموذجي المغرب والجزائر». رواق عربي. العدد 28 (2023).

الفارس، عبد الرزاق. السلاح والخبز: الإنفاق العسكري في الوطن العربي 1970-1990. مركز دراسات الوحدة العربية، 1993.

فولف، أرنست. صندوق النقد الدولي: قوة عظمى في الساحة العالمية. ترجمة عدنان عباس علي. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2016.

فونتيل، جاك. النفقات العسكرية والحد من التسلح. بوبرليشك، 1995.

كداوي، محمود طلال. الإنفاق العسكري الإسرائيلي 1965-1990. مركز دراسات الوحدة العربية، 1997.

المجلس الأعلى للحسابات (المملكة المغربية). تقرير تقييم المخطط الاستعجالي لوزارة التربية الوطنية. الرباط: المجلس الأعلى للحسابات، 2018.

المجلس الوطني لحقوق الإنسان. فعلية الحق في الصحة: تحديات، رهانات ومداخل التعزيز. الرباط: المجلس الوطني لحقوق الإنسان، فبراير 2022.

معهد ستوكهولم الدولي لأبحاث السلام. ملخص الكتاب السنوي 2023. التسلح ونزع السلاح والأمن الدولي. السويد: معهد ستوكهولم الدولي لأبحاث السلام، 2023.

المنجرة، المهدي. قيمة القيم. مطبعة النجاح الجديدة، 2007.

ناي، جوزيف. القوة الناعمة: وسيلة النجاح في السياسة الدولية. ترجمة محمد توفيق البجيرمي. مكتبة العبيكان، 2007.

هنتغتون، صامويل. الجندي والدولة: نظرية وسياسات العلاقات المدنية-العسكرية. مطبوعات جامعة هارفرد، 1957.

Bibliography

Carr, Edward Hallett. *The Twenty Years Crisis 1919-1939: An Introduction to the Study of International Relations*. 2nd ed. Harper & Raw, 1964.

De Mesquita, Bruce Bueno. "Domestic Politics and International Relations." *International Study Quarterly* 46, no. 1 (2002).

Fasanotti, Federica Saini. *Libya: From Rebellion to Fragmentation*. Brookings Institution, 2019

Gilpin, Robert. *Global Political Economy: Understanding the International Economic Order*. Princeton UP, 2001.

Gilpin, Robert. *War and Change in World Politics*. Cambridge University Press, 1981.

Grieco, Joseph. "State Interests and Institutional Rule Trajectories: A Neorealist Interpretation of the Maastricht Treaty and European Economic and Monetary Union.» *Security Studies* 5, no. 3 (1996).

Hartley, Keith, and Todd Sandler. "Economics of Defence Policy." *In Handbook of Defense Economics*, Vol. 1, edited by Keith Hartley and Todd Sandler. Elsevier, 1995.

Herz, John H. *International Politics in the Atomic Age*. Columbia University Press, 1961.

International Institute for Strategic Studies (IISS). The Military Balance 2022. Routledge/IISS, 2022.

International Monetary Fund (IMF). "World Economic and Financial Surveys. Regional Economic Outlook Update." IMF, 2020.

International Monetary Fund (IMF). Algeria: Macroeconomic Developments 2023. IMF, 2023.

Jacobs, Michael D. "Hegemonic Rivalry in the Maghreb: Algeria and Morocco in the Western Sahara Conflict." Master's thesis, University of South Florida, 2012.

Kennedy, Paul. *The Rise and Fall of the Great Powers: Economic Change and Military Conflict from 1500 to 2000*. Random House, 1987.

Lacher, Wolfram. *Libya's Fragmentation: Structure and Process in Violent Conflict*. I.B. Tauris, 2020.

Mearsheimer, John. *The Tragedy of Great Power Politics*. Norton, 2001.

Morgenthau, Hans. *Politics Among Nations. The Struggle of Power and Peace*. A. Knopf, 1964.

Robert Gilpin, *War and Change in World Politics* Cambridge University Press, 1981.

S. Gray, Colin. "The Arms Race Phenomenon». *World Politics* 24, no. 1 (1971).

Snyder, Jack. *Military Expenditure Database 2024*. SIPRI, 2024.

Snyder, Jack. Myths of Empire: *Domestic Politics and International Ambition*. Cornell University Press, 1984.

Stockholm International Peace Research Institute (SIPRI). SIPRI *Yearbook 2023*: Armaments, Disarmament and International Security. Stockholm: SIPRI, 2023.

Waltz, Kenneth. "The Stability of a Bipolar." *Daedalus* 93, no. 3 (1964).

Waltz, Kenneth. *Theory of International Politics*. Random House, 1979.

Williams, Michael C. *The Realist Tradition and the Limits of International Relations*. Cambridge UP, 2005.